روايات أحلام

مرفأ العيون

WWW.REWITY.COM
^RAYAHEEN^

مرفأ العيون

ماذا حدث بينها وبين مارتن ريفز منذ التقيا ؛ الغضب والخلاف .. ابتسامة نادرة ، لمسة سريعة ، هذا كل شيء .. مع ذلك فمجرد التفكير فيه يرسل قشعريرة غريبة في أوصالها ... لكن لا تمكنك الوقوع في حب رجل لا تعرفينه يا ساري ؛

- أنت شابة جميلة ... لكن ليس عندي ما أعطيك إياه . فابتعدي عن حياتي ؛ لا أريد أية صلة بك بعد الآن ...

- مم تريد الهروب ؛

- هذا ليس شأنك ؛

- لن يتوقف العالم من أجلك سيد ريفز ... لن تستطيع أن تهرب من الحياة ... سأذهب ولن أعود ثانية ولكنك ستكتشف خطأك ؛

... حتى تستطيع ساري أن تنفذ وعدها بعدم العودة . عليها أن تسبح بعكس تيار مشاعرها الجارف .. وما أصعب أن نبحر في بحر الحب عندما يضيع القلب ؛

www.rewity.com

١ ـ ممنوع الدخول

حملت الريح الأطلسية الباردة صيحات الأوز البرّي إلى الفتاة النحيلة الصهباء الواقفة بلا حراك قرب سيارتها. . كانت الطيور العظيمة تحطّ على الأرض أسراباً أسراباً، حيث عيدان الذرة المتبقية من السنة المنصرمة في صفوف منتظمة في الحقل، وكان ثلج الشتاء ما يزال غير ذائب بين الأثلام. . وبدا لساري أنها قادرة على سماع صفير الهواء الذي تحدثه أجنحة الطيور الكثيرة التي تتحرك كجناح واحد، ثم تحطّ على الأرض حيث تصبح فوق الحقول بقعاً دكناء كثيرة.

انطلقت بسيارتها على الطريق الترابية الضيقة توصل البيض ولكنها راحت تركّز على القيادة، فالطريق منزلقة بسبب الوحول بعدما حطّ الربيع أخيراً حمله على الجزيرة. . ثم جعلها شيء ما ترفع رأسها إلى السماء. . وما إن رأت صفقات الأجنحة الرتيبة في السماء الغارقة بالضباب حتى أوقفت السيارة وترجلت منها. . لم تكن قادرة على تفسير سبب انجذابها إلى هذه الطيور البرية الجميلة. . الأوز الكندي الطويل العنق، الملوكي المظهر، الأبيض كالقطن، ما إن يذوب الجليد عن الأنهر والبحيرات حتى تهاجر جنوباً أسراب هائلة منه فتجعل السماء قاتمة وتصبح الجزيرة موطنها مدة شهر. ولكن مع منتصف أيار ترحل، تطير شمالاً لتبيض ولتربي فراخها. . ولكنها تعود في الخريف سمينة وتبقى حتى يهطل الثلج مجدداً.

تنهدت. . من الأفضل لها أن تعود إلى العمل. فالسيد بلاند فورد

بانتظار طلبيته الأسبوعية من البيض البني القشرة. صفقت بأصابعها المغطاة بالقفاز وعادت إلى السيارة. . لا شك أن فنجان قهوة سيشعرها بالدفء. . الطقس بارد، وبرد نيسان لاذع في «پريس ادوارد» حين يكون الصقيع غامراً الشواطىء، والريح تهبّ مباشرة من القطب الشمالي.

غيّرت السرعة. . لقد أصرّ جيرالد على أن تأتي بسيارته بدل سيارتها، لأن سيارته أعتق من سيارتها بكثير. وانطلقت بسرعة متجنبة حفرتين كبيرتين. . في مثل هذه الطريق قد تغوص السيارة. أمسكت المقود بيدين ثابتتين ولكنه كان يرجرج ويتلوى في حياة خاصة به ومع ذلك بدأت تدندن لنفسها لحناً.

ثم بدأ كل شيء يحدث بسرعة، بحيث وجدت في ما بعد صعوبة في تذكر ما حدث. . كانت الغلطة غلطة الأوز، هذا مؤكد. . كانت على بعد ميلين من منزل السيد بلاندفورد حين دفعها شيء ما إلى رفع بصرها إلى السماء. . كان سرب من الطيور يرفرف في السماء العاصفة بالريح. . نظرت ساري إليها بغبطة لذا لم ترَ لوحة الوقوف الحمراء أمامها. . هذه الطيور جميلة بشكل غير معقول وهي تدفعها دائماً إلى الرغبة في مغادرة موطنها في الجزيرة لترفرف بجناحها عالياً عالياً. .

سمعت تصادم المعدن بالمعدن. . وصوت تحطم زجاج، واصطدم رأسها بزجاج السيارة الأمامي وأفلت المقود من يدها. . لم تدرك أنها تضغط على المكابح، ولكنها فعلت ذلك بطريقة لا إرادية، فقد توقفت السيارة القديمة مرتجفة. . ودار العالم من حولها وأغمضت ساري عينيها، تقاوم موجة الغثيان والدوار.

انفتح بابها بحدة، وصاح صوت رجل أجش:

ـ هل أنت بخير؟

كان جبينها مستنداً إلى المقود، ابتلعت ريقها غصباً ثم أجبرت نفسها على النظر إلى الأعلى. . ولكن العينين اللتين قابلتاها لا تشبهان عيني أحد سبق أن رأته. . إنهما طويلتا الأهداب عميقتان، لونهما رمادي غريب. .

لكن كلمة رمادي مبتذلة لأنهما بلون الصخر. . قاسيتان لا تليناں، وكان فيهما بريق قلق. . لكن رغم تشوشها لم يخدعها هذا، فتحت ذلك القلق يكمن الغضب.

ـ هل أنت بخير؟

لامست جبينها بحذر:

ـ أنا. . أظن هذا. . صدمت رأسي.

ـ يبدو أنه صدم الزجاج الأمامي. . من الأفضل أن تترجلي. . دعيني أساعدك.

ـ أستطيع الترجل بمفردي.

ولكن حين حاولت الوقوف اكتشفت أن ركبيتها رخوتان وأنها ترتجف. فانكأت على السيارة وسحبت أنفاساً قليلة العمق وأغمضت عينيها أمام النور الذي بدا فجأة مبهراً جداً. . في هذه البرهة توقف الزمان والواقع.

عاد وعيها بالتدريج ولاحظت أن القماش الذي تراه أمامها كان من «الجوخ» ناعماً، طرياً، غالي الثمن. . إنه كنزة الرجل، ومع أنها لم تقتن يوماً شيئاً بنعومتها ودقة نسيجها فهي تراهن أنها من صوف الكشمير الغالي الثمن كذلك. . ثم بدأت تعي أشياء أخرى: عطر رجالي لا تعرف اسمه ولكنه يوحي بالنظافة ويثير الاضطراب.

رفعت رأسها فتلاقت عيناها من جديد بعينيه الرماديتين.

تلعثمت قائلة:

ـ أشعر أنني أفضل حالاً الآن. . ماذا حدث على أي حال.

رد منجهماً: «حدث أنك قدت السيارة مباشرة نحوي».

ـ آه. . لا!

ـ آه! بلى. ألم تري إشارة الوقوف؟

نظرت ساري إلى ما حولها، فرأت أنها واقفة على مفترق طريقين: الترابي الذي كانت تسير عليه، والطريق المعبّد الذي يتوجه مباشرة إلى

مزرعة جيرالد. . ولأنها لم تعد تستطيع التجاهل، نظرت إلى السيارتين، سيارة الغريب صدمت إطارها الأمامي الأيمن مباشرة، فالتوى الدفاع والجناح ووقع الإطار أرضاً. . سيارته مرسيدس ستايشن سوداء مصقولة براقة غالية الثمن، أصيلة كصاحبها. . لحسن الحظ أن سيارة جيرالد هي التي تلقت الصدمة كلها، مع أن في الطلاء الأسود خدشين عميقين.

قالت بعجز:

ـ أنا آسفة. . سأدفع كلفة كل ضرر ألحقته بسيارتك.

توقعت الشكر ولكن أملها خاب.

ـ ما أسهل الاعتذار. . جل ما أريد معرفته هو سبب عدم إبطائك السير عندما وصلت إلى مفترق الطرق. . فأنا كما ترين، تابعت المسير ظناً مني أنك ستتوقفين.

لم يكن الكذب أحد مساوئها لذا اعترفت: لم أنتبه. .

ـ هذا واضح.

بدا صوته مشبعاً بالسخرية، وأصابها شيء ما في رنة صوته في وتر حساس، فرفعت ذقنها بتحدٍ:

ـ قلت لك إنني آسفة وإنني سأدفع لك الأضرار. . لذا لا تتصرف وكأنني ارتكبت جريمة!

ـ لو كانت سرعتك أكثر مما كانت عليه، لارتكبت تلك الجريمة. . فمن الإجرام قيادة السيارة بدون مراقبة ما تفعلين.

ومع أنها تعرف مدى صواب كلامه لم تتراجع عن التحدي. قالت ووجهها يمتقع:

ـ لا تتوقع مني ان أعتذر مرة أخرى!

ـ خلت للحظات أنني قتلتك!

لاحظت للمرة الأولى ابيضاض في زاويتي فمه فكررت:

ـ إذن. . أنا آسفة. . سأكون أكثر حذراً في المستقبل.

لم يتأثر بكلامها لأنه قال ببرود:

ـ اعملي معي معروفاً وأخبريني عن ماهية الشيء أو الشخص الذي كانَ يشغل بالك. . هل أنت واقعة في الحب؟ أم لعلك تشاجرت مع حبيبك؟

ـ لا. . ولا!

فجأة مال رأسها إلى اليمين، وتلاشى الغضب من عينيها، ووضعت يدها على كم سترته:

ـ انظر. .

أدار رأسه لا إرادياً لتلحق نظراته بنظراتها. . فوق قمم الأشجار وأغصانها السوداء الشامخة إلى الغيوم، كان سرب طويل من الأوز يكافح في السماء. . ثم سكنت الأجنحة وحطت الطيور التي توارت وراء الأشجار.

عندما أطلقت ساري تنهيدة رضى عادت عينا الرجل إليها. . سترتها الخضراء قديمة بعض الشيء، وعلى ركبتي الجينز بقعتان بيضاوان أما حذاؤها الواقي من الوحل فقد اختارته لنفعه لا لأناقته. . لكن وجهها هو ما جذب نظرته وأسرها. . شعر أحمر أصهب يستدير حول أذنيها، ومؤخرة عنقها، ويلتصق برأسها الجميل. وجنتان مرتفعتان وعينان خضراوان رماديتان. . وبعض النمش فوق أنف مرتفعة أرنبته وهذا كله جعل وجهها غير عادي الجمال. . لكن كان فيه أكثر من الجمال، فأساريرها تعكس كل مشاعرها. . إنه وجه متحرك حي يشع منه النشاط. . أعادت اهتمامها من السماء إليه لأنها وجدته يمعن النظر فيها.

ـ أترى. . السببَ هو الأوز. . لهذا لم أكن منتبهة للطريق.

من الواضح أنها تعتبر تصريحها القصير شافياً. قال بصبر مبالغ فيه:

ـ لا أنهمك. . هلاّ شرحت لي ما هو الشيء الذي استحوذ على كل مشاعرك في بضعة طيور؟

صاحتْ تملؤها الصدمة:

ـ لكنها ليست طيوراً عادية!

أعادت نظرها إلى السهل المترامي أمامها وعيناها تبرقان برقّة:

- إنها تطير مع الريح.. السماء وطنها..

هزت رأسها.. وحاولت أن تكون أكثر واقعية:

- يعشش العديد منها في الشمال البعيد.. وهي تقاتل بشجاعة الأسود من أجل صغارها. إنها تتزوج من أجل استمرار نسلها.

- على عكس الجنس البشري.

عادت عيناها بسرعة إلى وجهه.. طالما آمنت أن ريكي هو أجمل رجل عرفته ولكنها الآن غير واثقة.. لم يكن لهذا الرجل الطلة البهية الكلاسيكية التي يتمتع بها ريكي.. فقسمات وجهه منحوتة بخشونة أكثر.. مرة أخرى تسللت إلى تفكيرها كلمة الصخرة: وجنتاه بارزتان وذقنه بارز أيضاً وعنيد أما فمه فرائع، وأما عيناه فآسرتان عميقتان..

- من السخف قول هذا.. أعرف زيجات عديدة دامت لسنوات طوال.

- حقاً؟ إذن أنت أكثر مني حظاً.

أرجعت الريح قبعتها عن رأسها وعبثت بشعرها.

- أعتقد أن الطقس بارد على مثل هذا الحديث.. وعلى الأخص ونحن في مثل هذه الظروف.

لم تلهه كلماتها:

- أخبريني شيئاً واحداً بعد.. هل تغتبطين هكذا لأبسط الأمور؟ أم للأوز البري فقط؟

قالت بسخرية مرحة:

- أتمنى هذا.. لكنني أبالغ أحياناً، لذا أجدني واقعة في المتاعب دائماً.. كما أنا الآن.. أوه يا إلهي.. ليتني كنت أنظر أمامي.. آه! وهذه سيارة جيرالد، وليست سيارتي.

- جيرالد؟

اعترى وجهها المؤثر الضباب، وفاتها ملاحظة ما يتضمنه السؤال من معانٍ، كما فاتتها النظرة السريعة التي ألقاها على يديها عله يرى خاتماً ما

ولكنه لم ير سوى القفاز الصوفي.

تنهدت: أجل.. إنه لا يحتاج إلى حادثة كهذه.. حسناً، أظنه اعتاد على المتاعب التي أجلبها على كاهله.. ولعله لم يعد يهتم كثيراً.

نظر الغريب إلى ساعته:

- أظن أن الوقت حان لنبعد أنفسنا عن هذا الحطام. أخبريني أين تضعين إطارك الإضافي لأضعه لك.. أما سائر الأضرار فلا أظنها مهمة.

قالت بصوت واهن: الإطار الأمامي فارغ من الهواء.. كان عليّ أن أنفخه هذا الصباح.. ولكنني قررت أن أنقل البيض أولاً.. أوه.. يا إلهي! ليتني لا أجدها مكسورة!

- البيض هو آخر ما يقلقني.. هل الإطار في الصندوق؟ سنأخذه إلى أقرب محطة وقود.. هناك محطة على بعد ميلين، أليس كذلك؟

نظرت إلى حذائها الغارق بالوحول ثم إلى المرسيدس البراقة.

- لماذا لا أنتظر هنا؟

- الطقس شديد البرودة.. اصعدي.

في صوته ما أوقف الاحتجاج على طرف لسانها. فكرت بمرح.. سيعجب جيرالد كثيراً برؤيتها تتسلق سيارة الغريب بإذعان.

نظرت بقلق إلى زيها الأشعث.

دخل إلى سيارته بعدما وضع إطارها في الصندوق وقال بحدة وهو يقود السيارة إلى الأمام:

- على بعد ميلين تقريباً هناك كاراج.. أليس كذلك؟

- أجل.. أرجو ألا تكون على عجلة من أمرك؟

نظر إليها ساخراً:

- وخز ضمير متأخر؟ آه.. حسناً.. إن أحد أسباب قدومي إلى الجزيرة هو الهرب من طغيان التقيد بالساعة.

سألت بأعذب صوت:

- لم تقل لي اسمك.

رد بأدب خالٍ من أي اهتمام:

ـ مارتن ريڤز. ما اسمك أنت؟

ـ ساري آثرتون.. هل أنت مجرد زائر؟

ـ لا.

انتفضت ساري:

ـ بكلمات أخرى، عليّ الاهتمام بشؤوني الخاصة.

ـ تصفين الأمر بقسوة، لكن.. أجل، فأنا أقدس خصوصيتي.. وهذا سبب آخر دفعني للقدوم إلى هنا.

وصلا إلى الكاراج حيث تقدم مارتن ريڤز ليقف قرب خرطوم الهواء.

ـ امكثي في السيارة.. لن يستغرق الأمر دقيقة.

لم يكن يهتم براحتها.. بل لا يريد صحبتها بكل بساطة.. بعد رجوعه، قالت ببرود:

ـ أعرف الرجل الذي يدير الكاراج، وهو سيرافقني إلى سيارتي ليغير الإطار.. لهذا لن أزعجك.

ـ سمعت الشاب في الداخل يقول شيئاً عن خروج صاحب الكاراج في عمل، لذا علينا الانتظار.

ـ لكنني واثقة أن لوقتي أهمية أقل من وقتك.

قال بصوت لطيف: على أي حال.. قد يتجمد البيض، ولا يمكننا السماح بهذا أليس كذلك؟

ـ أنت رجل مثير للسخط.. هل لديك دائماً رد على كل شيء؟

بدا شيء من المرح في عينيه:

ـ وأنت شابة صريحة.. هل تقولين دائماً ما يدور في رأسك بالضبط؟

ـ أكره التلاعب.. لذا أعتقد أنني أقول ما يجول في خاطري.

ـ إذن.. فلأكن مثلك، ولأقُل إنني أفضل أن أغيّر إطارك بنفسي لأراك تنطلقين سالمة في طريقك.

وإلى خارج حياتك..

قالت: يجب أن تذكر لي عنوانك لأسدّد ثمن الأضرار التي ألحقتها بسيارتك.

تطلعت عيناه بسرعة إلى جينزها الباهت.

ـ هذا ليس ضرورياً.

استوت جالسة ويداها منقبضتان في حضنها، فقد فهمت دلالة تلك النظرة!

ـ سيد ريڤز.. لا أقبل الإحسان من أحد.. أنا قادرة رغم ما تراني أرتديه على دفع كلفة إصلاح سيارتك.

عادا إلى مفترق الطرق مجدداً، وأوقف السيارة بحدة أكثر من اللازم:

ـ فلنسلم جدلاً أنك قادرة، ومع ذلك أكرر أن هذا غير ضروري. فلدي من المال ما لا أعرف رقمه بالتحديد أما المبلغ الذي سأدفعه لأصلح السيارة فنقطة في بحر.

ردت بهدوء خطير:

ـ لم تفهم المسألة.. أنا مسؤولة عن الضرر.. لذلك سأدفع كلفة إصلاحه.

ـ ظننتها سيارة جيرالد.

ـ هذا صحيح. لكن لا فرق في هذا، فأنا سأصلحها فلديه من المشاكل المالية ما يكفيه.

ـ وهذا سبب إضافي يجعلني أدفع أنا التكاليف.

ارتدت تواجهه.

ـ ألا تفهم؟ من غير الصواب أن تسدّد أنت فاتورة الأضرار.. أرجوك.. اسمح لي أن أسددها.. إنه المبدأ!

نظر إلى وجهها الذي بانت عليه كل لهفتها وقناعتها:

ـ الأمر مهم لك حقاً.. أليس كذلك؟

ـ طبعاً مهم!

ابتسم للمرة الأولى منذ لقائهما. ثم رفع إصبعه في الهواء، فارتعشت

أهدابها قليلاً..

قال بصوت لا مجال للخطأ فيه:

- هذا لطف شديد منك ساري آثرتون.. لقد مضى زمن طويل لم أقابل فيه أحداً يؤمن بالمبادىء.. طويل جداً على ما أعتقد.. شكراً لك.

مد يده يفتح الباب: والآن دعينا نصلح الإطار.

أخذت غطاء الإطار منه ثم المثبتات اللولبية، وقالت مازحة:

- قد تكون ميكانيكياً.

- كنت هكذا مرة.

- لا أظنك كنت ميكانيكياً يوماً.

سحب الإطار من مكانه، وتفحصه:

- لا؟.. لقد تمزق.. ستضطرين إلى شراء آخر. سأضعه لك في الصندوق.

كان لديها الذكاء الكافي الذي جعلها لا تطرح المزيد من الأسئلة.. راحت تنظر إليه وهو يضع الإطار السليم مكانه ويشد المثبتات اللولبية. أمسكت أصابعه الرشيقة المفتاح بقوة لم تدهشها. حين انتهى وأعاد المعدات إلى مكانها أعطته قطعة قماش ليمسح يديه، ثم ألقى نظرة شاملة على السيارة.. وقال:

- حين تضعين السيارة في التصليح.. تأكدي من المفاتيح ومن عمود المقود الأفقي، ومن خزان التبريد.. هل ستذهبين إلى مكان بعيد؟

- ليس كثيراً.. أعيش في هونتلاي.. وأعتقد أنني ذاهبة إلى المنزل أولاً قبل أن أتابع توزيع البيض.

- هذا قرار حكيم.. يجب ألا تقوديها كثيراً قبل إصلاحها.

تناهت من أطراف الحقل البعيدة نداءات الأوز، وقالت ساري:

- لقد كانت غلطتها.. حقاً.

- لا شك في ذلك.. حسناً، وداعاً ساري آثرتون. يجب أن أتابع المسير.

مدت يدها بالقفاز تصافحه فشعرت بضغطه على أصابعها.. ولكن حتى ابتسامته لم تلطف من قسوة عيني هذا الغريب الغامض الذي يبدو قادماً للتو من محل بيع الأزياء الرجالية في تورنتو، ولكنه رغم ذلك غيّر إطار السيارة ببراعة عامل كاراج.

قالت بأدب: «وداعاً سيد ريفز».

أخافتها كثافة الندم في صوتها.. كم ودت لو تراه مجدداً.. لو تتاح لها الفرصة للوصول إلى ما وراء الحواجز التي يقيمها ضد.. ضد ماذا؟ أو ضد من؟ ليس لديها فكرة.

قال: «في المرة القادمة، افتحي عينيك جيداً..».

ركب المرسيدس واتجه نحو الكاراج مجدداً لكن وجهته قد تكون واحدة من دزينة أماكن تعرفها ساري، فطريق «شارلوت تاون» تتقاطع مع هذه الطريق على بعد ثلاثة أميال تقريباً.. وجدت نفسها للمرة الأولى لا تهتم كثيراً بالأوز.. فمن الأفضل لها أن تعود إلى المنزل لتخبر جيرالد بما حصل.

بعد خمس عشرة دقيقة من السير البطيء الحذر، وصلت إلى هونتلاي وهي قرية صغيرة ملتفة حول جون صغير يفضي إلى خليج سانت لوران. وانعطفت في طريق منزل جيرالد الداخلي. في تلك اللحظة خرج بيت ابن السبع سنوات لملاقاتها تلحقه لويزا الخادمة.

- مرحباً ساري! هاي.. ماذا فعلت بالسيارة؟

ترجلت من السيارة: اصطدمت بسيارة أخرى.

تباً! لماذا انزعجت لأن مارتن ريفز لم يترك لها عنوانه؟ ولماذا تهتم.. ولكنها تهتم.

سألها بيت: «أي نوع من السيارات؟»

كان شعره أحمر كشعرها لا كشعر جيرالد الكستنائي الفاتح أو شعر لي آن البني القاتم، وطبيعته تشبه كثيراً طبيعتها السريعة الانفعالية.

- سيارة مرسيدس.

صاح بعدما فقد النطق مؤقتاً: واو..!

- أين والدك؟

- في المنزل.. يدفع الفواتير.

عبست ساري.. لقد اختارت الوقت غير المناسب.. فالأمور المالية في هذه الأيام موضوع حساس.

سارت في الممر وهي ترمق منزل المزرعة القديم بنظرة حب.. الرواق المسقوف بحاجة إلى إصلاح سقفه وطلاؤه بدأ يتشقق.. مع ذلك هي تحب كل زاوية فيه.. فمنذ اشتراه جيرالد أي منذ سنوات وهي تقصده حتى باتت تعتبره بيتاً ثانياً لها.

كان بيت يشد يدها:

- هل أعطاك السيد بلاندفورد بطاقات للهوكي؟

- لم أذهب إلى هناك حبيبي. سأذهب إليه في سيارتي.

- هل أخبر أبي بما حدث؟

- لا!

من حسن الحظ أنه مطيع في مثل هذه الحالات.. خلعت حذاءها الموحل وعلقت سترتها، ثم دخلت إلى المطبخ إلى حيث طباخ الحطب الذي تشع منه حرارة مريحة.. كان جيرالد جالساً قرب الطاولة الصنوبرية المغطاة بالدفاتر والشيكات والإيصالات والفواتير.. كان عدد الفواتير يفوق عدد الإيصالات..

ابتسم لها: لقد عدت مبكرة قليلاً.. أليس كذلك؟

- جيرالد.. آسفة.. لكن تعرضت لحادث.

وتذكرت ما قاله مارتن ريفز:

- يجب أن تفحص المكابح وعمود المقود الأنفي، وخزان التبريد.. وشيء آخر..

سألها بصوت أجش:

- عمود المقود؟ ماذا حصل أختاه؟

ارتمت على كرسي قبالته:

- إنها غلطتي، لقد اصطدمت بسيارة أخرى.

لم يعد بيت قادراً على السكوت:

- سيارة مرسيدس أبي!

- أنت تختارين أفضل السيارات.. أليس كذلك ساري؟ وكيف خرج من الاصطدام؟

- حالة سيارته خير من حالة سيارتك. لكنه لم يسمح لي أن أدفع.. أعتقد أن لديه مالاً كثيراً.. مع ذلك تمنيت لو تركني أدفع.

- يبدو أنك لم ترفرفي له برموشك بما فيه الكفاية.

ردت غاضبة: «لا تكن سخيفاً! أنا لا أتجول وأنا أرفرف رموشي للغرباء».

- لا حاجة بك إلى هذا.. نظرة واحدة إلى هاتين العينين الخضراوين الكبيرتين كافية لينصاع لك أي رجل.

قالت: «ليس هذا الغريب».

- حقاً؟ أود لو ألتقي به.. إنه طير نادر.

تعرف ساري أنها قادرة على محادثة جيرالد بصراحة فرغم فرق العمر الذي يبلغ اثنتي عشرة سنة فإن بينهما رابطاً من الحب قوياً. ضاعت العينان الخضراوان اللتان اتهمهما جيرالد بالقدرة على السحر في تفكير عميق:

- لا يشبه أي رجل سبق أن التقيته.. إنه.. أوه.. هذا سخيف.. لا شأن لي حقاً.. فهو لم يهدر وقته بذكر شيء عن نفسه.. ولكنني لم أستطع إلا أن أشعر بأن خطباً ما طرأ على حياته.. لم يبدُ سعيداً.. أنا واثقة من هذا.

- ترك على ما يبدو تأثيراً قوياً فيك.

قالت بخفة مصطنعة:

- لا فرق سواء أترك أم لم يترك.. لأنني لن أراه ثانية. والآن إنّ أفضل ما عليّ القيام به هو وضع البيض في سيارتي لأنتهي من توزيعه.

ـ على ألا تراقبي.. أتعدينني؟

ضحكت ضحكة خجولاً وقالت: «بكل صدق! أنا آسفة جيرالد.. كان تصرفاً غبياً».

نظرت إلى كومة الأوراق على الطاولة فعبثت بفاتورة، وهي فاتورة من عدة فواتير صادرة عن مستشفى مونتريال.

ـ يفترض بي مساعدتك لا إضافة متاعب أخرى إليها، فلديك ما يكفي ليشغل بالك.

نظر إلى كومة الفواتير غير المسددة عابساً: «أجل..».

وضعت يدها على يده فلاحظت كم بدا عليه الكبر في الأشهر الستة المنصرمة.. لقد ظهرت أولى بوادر الشيب في خصلاته البنية وبانت التجاعيد على جبينه.. لو كانت ذات فائدة، لاستخدمت كل فتنتها لتتزوج برجل ثري.. برجل كمارتن ريفز.. ما إن تذكرته حتى التوت شفتاها قلقاً.

دفعت الكرسي إلى الوراء:

ـ سأعود بعد ساعة لأتناول غدائي.

ـ حسناً.. سأدخل السيارة إلى مخزن الغلال. ربما أستطيع إصلاح بعض أضرارها.. فالأرض ما تزال رطبة على الفلاحة.

تمت جولة التوزيع الثانية بسهولة، وسرعان ما عادت ساري إلى المنزل حيث أحضرت غداءها وتناولته. بعد ذلك جلت الصحون بمساعدة روبي ابن جيرالد البكر البالغ من العمر عشر سنوات، إنه نسخة عن أبيه في المظهر والطباع. هو هادىء سهل المعشر بمقدار ما بيت مفعم بالحيوية والنشاط.. فيما بعد لحقت ساري بالولدين إلى الخارج لتلاعبهما وبعدما توقفت عن ملاعبتهما بدأت بتحضير الخبز وهو أحبّ عمل إلى قلبها في يوم عاصف كهذا، كانت تدعك العجين للمرة الثانية وتدندن لحناً لا تعلم له حين تصاعد قرع حاد على الباب الخلفي.. ولأنها غير راغبة في إيقاف عملها، صاحت: «أدخل».

كانت الموسيقى تصدح من المسجلة ومع ذلك سمعت وقع الأقدام على الشرفة المسقوفة، رفعت ساري رأسها مبتسمة ابتسامة ترحيب تتساءل من القادم. عندما انفتح باب المطبخ ودخل الرجل تلاشت الابتسامة عن وجهها.

كان مصدوماً مثلها، لبرهة بدت دقائق تبادلا النظرات بصمت مطبق.. كسره أخيراً مارتن ريفز:

ـ لم أعرف أنني سأجدك هنا.

استعادت رباطة جأشها بسرعة:

ـ أنا واثقة من هذا وإلا لما جئت.. أليس كذلك؟ على أي حال لقد أوضحت بشكل حازم أنك لا تريد رؤيتي ثانية.

ـ هذا صحيح.

ضربت العجين بغضب:

ـ بما أنك هنا فسأغتنم الفرصة لأحرّر لك شيكاً يغطي نفقات إصلاح سيارتك.

ـ لن تفعلي.. سبق أن سوينا هذا الأمر.

ـ بل قل.. إنك أنت من سويته!

ـ ستفسدين العجين إن تابعت عجنه بهذه القسوة.

نظرت إلى العجين فرأته متناثراً.

ابتسمت: أوه.. حقاً.. أليس كذلك؟ فيك ما يثير أسوأ طباعي.. ماذا تفعل هنا؟

ـ يبدو أنني أصبحت جاركم.

جمدت يداها على لوح العجين.

ـ أتعني أنك اشتريت منزل أسرة بارنستيد؟

ـ أجل، وانتقلت إليه بالأمس.. أما الآن فقصدت منزلكم لأرى إن كان بمقدوري استخدام هاتفكم.. فلن يشغّل هاتفي قبل يوم الاثنين.

ردت بشكل آلي:

- تستطيع بالتأكيد.. تجده في الردهة. ومن الأفضل أن تخفض صوت الراديو أو تقفل الباب.

هز رأسه باحترام وأقفل الباب وراءه.

قطعت ساري العجين إلى أرغفة مرتبة الشكل ومسحت سطحها بالزبدة وغطتها بقماش.. ثم أخرجت صينية بسكويت من الفرن ووضعت أخرى. كانت تغسل يديها فوق المغسلة حين عاد مارتن ريڤز إلى المطبخ ووضع خمس دولارات على الطاولة.

- كانت مخابرة خارجية، سألت عاملة الهاتف عن مقدار التكلفة وهذا سيغطي الكلفة.

نظرت إليه غاضبة: إذن لا بأس أن تعطيني أنت مالاً.. أما العكس فمرفوض.

- لم أرَ قطّ مخلوقاً عنيداً مثلك في حياتي!

- وهذا ما فكرت فيه بالنسبة لك.. على أي حال وبما أنني أعرف أين تسكن فلن يمنعني شيء من إرسال الشيك إليك بالبريد.. أليس كذلك؟ وبما أننا جيران لماذا لا تجلس لأعدّ لك فنجان شاي؟ أمامنا عشر دقائق من الهدوء والسكينة قبل عودة الولدين.

اعتبرت صمته قبولاً لذا شرعت بملء الغلاية بالماء.

- تساءلنا عن هوية الشخص الذي اشترى منزل بارنستيد.. إنها بقعة جميلة أليست كذلك؟ أشجار رائعة، سيتلهف الجميع لمقابلتك الآن.

في صمته الغريب شيء ما أوقف هذرها الأخرق في قمة اندفاعه.. لم يجلس لذا غار قلبها.

قال بصراحة: «أعتقد أن من الأفضل أن أوضح شيئاً منذ البداية، أرفض أن يقرع الناس بابي.. وأرفض مقابلة الجيران.. لقد جئت إلى هنا لأخلو إلى نفسي.. وأظن أنني أخبرتك بهذا».

سقط فكها إلى الأسفل.. ولكنها سارعت إلى إطباق فمها.

- لكن المرء في الريف يحتاج إلى جيرانه.. فالأمر مختلف عن

المدينة.. وقولي لا يعني أن الناس سيخيمون على باب دارك طوال الوقت.

- جئت لأتمّ عملاً مهماً جداً.. لذا أنا بحاجة إلى الوحدة.. سأعتمد عليك في نشر الكلمة في الجوار.

تسمّر وجه ساري سخطاً.. فأطفأت النار تحت الغلاية عامدة متعمدة.

- قُم بأعمالك القذرة بنفسك سيد ريڤز!

انفتح الباب الخلفي بقوة مرتين دلالة التخلص من حذائين موحلين. ودخل بيت الأصهب صائحاً:

- المرسيدس التي اصطدمت بها موجودة أمام المنزل..

عندما رأى الرجل الطويل الأنيق واقفاً قرب الطاولة.. أردف بلا توقف تقريباً:

- أهي لك؟ رأيت الخدوش عليها فعرفت أنها ذاتها.. هل أنت غاضب منها؟ هاي، أعددت بسكويتاً بالسكر؟ هل أستطيع أخذ قطعتين؟

قالت ساري بحزم: «خذ واحدة فقط والشيء ذاته ينطبق عليك روبي، وعليك يا جيرالد أيضاً».

ابتسم لها أخوها: بدأ التذمر..

ومد يده للرجل الآخر: جيرالد آثرتون.

- وأنا مارتن ريڤز.. انتقلت للسكن في منزل بارنستيد المجاور، وجئت أستخدم هاتفكم.

سمعت ساري الرجلين وهما يتبادلان أطراف الحديث بطريقة طبيعية وكان الغريب يظهر تساهلاً لم تره منه.. ثم سمعت جيرالد يقول:

- لماذا لا تبقى لمشاركتنا العشاء؟ واثق أن ساري قادرة على تحضير شيء إضافي.. أليس كذلك ساري؟

هزت رأسها بدون حماس يُذكر.. وعندما تكلم مارتن ريڤز توقعت ما قاله.

- هذا لطف كبير منك.. لكن لدي ارتباطات أخرى.. يجب أن أذهب الآن.

هز رأسه ببرود لساري وابتسم لجيرالد:

- من اللطف مقابلتكما.. وداعاً.

عاد جيرالد إلى المطبخ، وكانت ساري تنظف الأطباق المتسخة، فقال بلطف:

- لم أرك متحمسة لأنني دعوته.. أليس لديك سوى أربع شرحات من اللحم؟

- لا.. لقد طهوت اليخنة.. لكنك عندما وصلت كان ينتهي من إخباري بأنه لا يريد عقد صداقة مع أي جار من جيرانه.

- لكنه بدا لطيفاً.

- فعلاً.. كان لطيفاً معك، ربما يكره النساء.. أتفضل اللوبياء أم القرنبيط؟

تقبل جيرالد الطيب تغيير دفّة الحديث ومضت الأمسية بشكل طبيعي لعب فيها الأربعة الورق، حتى حان موعد نوم الولدين.. بعد ذلك كوت ساري بعض الثياب وفي هذه الأثناء راح جيرالد يدقق حسابات المزرعة.. أوت إلى فراشها باكراً لأنها كانت متعبة.. لكن ما إن تدثرت بالأغطية حتى عجزت عن الإغفاء، فقد وجدت صعوبة في التوقف عن التفكير في الغريب. يبدو واثقاً من نفسه ولكنه متكتم بشكل مخيف، إنها متأكدة من شيء واحد وهو أنها لن تسعى إليه مرة أخرى.. فهي تعرف متى تكون غير مرغوبة.. فكرت حائرة وهي تنجرف أخيراً إلى النوم، أنه سيضع عارضة على مدخل طريق منزله الداخلية مكتوب عليها: «ممنوع الدخول».

* * *

٢ - الهارب من الحياة

في اليوم التالي استيقظت ساري في السادسة والنصف صباحاً لأنها معتادة على الدوام الصباحي الباكر في عملها كاختصاصية فنية في مختبر المستشفى، في الساعة السادسة والنصف صباحاً.. كانت أشعة الشمس تتسلل من شق في ستائر نافذتها.. وكانت الريح متلاشية. نهضت من السرير لتفتح الستائر فالصباح مشرق.. رأت براعم تزهر في الشجيرات الشائكة الليلكية اللون وفي شجرة القبقب الحمراء الواقفة قرب مخزن الغلال ورأت عصفوراً غريداً يتمرن على التغريد، صوته ضعيف ومع ذلك يحمل طعم الربيع.

لم تتوقف ساري لتفكر.. رشت وجهها بالماء البارد ومررت مشطاً في شعرها ثم ارتدت سروال الفروسية وكنزة صوفية خضراء وانتعلت حذاءً جلدياً طويل الساقين. ما هي إلا خمس دقائق حتى كانت في مخزن الغلال تسرّج (زهرة الصباح) فرسها الكستنائية.. مؤخراً لم تتلق الفرس تمريناً لهذا ستفيدها النزهة.. خرجت مع رستي كلب الرعاة الاسكتلندي الذي يملكه جيرالد.

كانت نزهة رائعة، فقد بدا أن هواء الربيع كالترياق لزهرة الصباح ولساري أيضاً.. أخذت الفرس تقفز بحبور إلى ما وراء المخزن.. وما إن وصلت إلى الحقل المنفتح حتى تضاعفت سرعتها. وانحنت ساري فوق قربوس سرجها، تشعر بالريح تلسع وجهها. في هذه الأثناء توجهت الفرس إلى البستان القابع جنب التل، لكن حينما وصلت إلى الطريق

الترابية المفضية إلى الغابة فالشاطىء، شدت ساري لجام الزهرة وسارت بتؤدة مجدداً ليستطيع رستي اللحاق بها. . بعد ذلك تابعا المسير بين الأشجار. . ثم وصلت إلى الشاطىء، وهناك رأت زوجاً من البط يطيران. . إنه الربيع. . تمتعت ساري بوحدتها مع الطبيعة.

كانت تسير بلا هوادة لذا لم تنتبه إلى أنها قطعت الحدود بين أملاك جيرالد وبين ما كانت يوماً أملاك بارنستيد التي أصبحت الآن ملك مارتن ريڤز. . كان الزوجان بارنستيد شخصين كريمين أتيا من أريزونا وكانا يمضيان كل صيف في الجزيرة، حيث يمتلىء البيت بأولادهما الكثر وبأحفادهما، وبنات وأبناء أخوتهما. . وكانا يسمحان لأسرة آثرتون باستخدام أرضهما بما في ذلك ملعب التنس والشاطىء. بسبب هذا تلاشت الحدود تقريباً بالنسبة للعائلتين وعندما قررت عائلة بارنستيد في الصيف المنصرم بيع البيت الكبير، شقّ على ساري الأمر إذ شعرت بأنها فقدت جزءاً من عائلتها.

ربطت زهرة الصباح إلى شجرة، وشقت طريقها فوق الصخور باتجاه الشاطىء ولكنها لم تنتبه حتى هذه اللحظة أنها تعتدي على أملاك الغير. . فقد اعتادت أن يكون لها الشاطىء خاصة في وقت باكر كهذا من الصباح. في مكان بعيد من الخليج، كان الجليد المتكسر ما يزال طافياً، لكن على الشاطىء كانت المياه صافية زرقاء وكأنها معدن برّاق. . نبح رستي نباح ترقب وأخذ يلوّح بذنبه فاتحاً فكيه.

ضحكت ساري، فقد حان وقت اللعب. . التقطت قطعة خشب عن الرمال وراحت ترميها فأخذ رستي يعدو جيئة وذهاباً نابحاً نباح السرور. . استخدمت كل قوتها لترمي قطعة الخشب بعيداً. . فانطلق كالسهم إليها والتقطها، ثم حملها مجدداً ورماها تحت قدمي ساري. . ونبح كأنه يأمرها بالتكرار. . هيا! أسرعي! كرري ذلك ثانية!

كانت اللعبة في أوجها، وكانت ساري قد رمت الخشبة إلى أبعد حد ممكن: اجلبها رستي! ابحث عنها!. . فجأة أجفلت زهرة الصباح

وصهلت محذرة من قدوم أحد من بين الأشجار. نادت ساري وهي تتوقع أن يكون القادم أحد الصبيّين!

ـ تعال ارم الخشبة فذراعي تعبت.

زاد نور الصباح من وضوح ثناياها النحيلة والتقطت الشمس نيراناً من شعرها الأحمر ومن عمق عينيها الخضراوين. . كانت تضحك بسعادة. . وكأنها جزء متمم لما يحيط بها.

ـ ماذا تفعلين هنا؟

إنه مارتن ريڤز الذي برز فجأة من بين الأشجار ليقف على بعد عدة أقدام منها. كان غضبه كماء بارد رماه في وجهها. . ارتدت ساري خوفاً وخبا البريق من عينيها. . جعلتها حركتها هذه ترتطم بصخرة وكادت تقع رأساً على عقب. وصاح مجدداً:

ـ سألتك سؤالاً!

ـ ألعب مع الكلب. . فما بالك؟

ـ سمعت الضجيج الذي تفتعلينه وأنا في المنزل.

عاد رستي مسرعاً إليهما ونبح معلناً عن رغبته في متابعة اللعب.

ـ ابقي هذا الكلب صامتاً!

وقفت ساري جامدة. . جسدياً، كانت على مقربة شديدة منه جعلتها ترى الخطوط الخفيفة المنتشرة كالمروحة حول زاويتي عينيه. . وآثار الأرق على وجهه. . مع ذلك لم تحس قطّ أنها بعيدة عن أي إنسان كحالها معه.

قالت بهدوء وعيناها لا تفارقان عينيه:

ـ رستي. . اجلس.

لا شك أن في صوتها ما جعل الكلب يبرك على الرمال ويبدأ في تحطيم قطعة الخشب بين فكيه القويين. . أكملت ساري بهدوء:

ـ لن يعوي بعد الآن.

سمعت صوت تنفسه الأجش:

- قبل أي شيء.. أنت تطئين أملاكي.. فهذه أرضي.

- لا أظنني أسبب ضرراً، والواقع أنني لا أعتقد أن أحداً يستطيع امتلاك الشاطىء والبحر.

- حتى نصلي إلى هنا عليك المرور بالغابة.

- هذا صحيح.. طالما سمحت لنا أسرة بارنستيد باستخدام هذه الأملاك.

- أنا لست مثلهم.

- لا.. هذا واضح.

ابتلع ريقه بقوة.

- اسمعي.. سبق أن قلت لك إنني قصدت هذا المكان في سبيل الراحة والهدوء وحتى أبتعد عن ضجيج المدينة.. فماذا حصل؟ كنت على الشرفة الخلفية أحاول العمل فإذا بي لا أسمع غير عواء الكلب.

- آسفة لأن عواءه أزعجك.

- لكنك لست آسفة على اعتدائك على أملاكي.. هل هذه الرسالة؟

بدا على وجهها الانزعاج:

- أجل.. أعتقد هذا. لا تنفك عن تذكيري برغبتك في الابتعاد عن كل شيء؟ عمّ تريد الابتعاد؟

- هذا ليس شأنك.

- لن يتوقف العالم من أجلك سيد ريڤز.. بل سيستمر الناس بالتحرك من حولك. وحياة الناس تعني الضجة والارتباك والمسؤولية والمشاعر.. لذا لا تظنن أنك قادر على الابتعاد عن كل هذا.

- لم آتِ إلى هنا للإصغاء إلى محاضرة.. جئت لسببين: أولاً لإيقاف هذا الكلب عن النباح، وثانياً لأقول لك إن هذه الأملاك أملاكي، وإن عليك وعلى عائلتك الابتعاد عنها.. هل هذا مفهوم؟

وكأنما لم يتكلم إذ قالت همساً:

- أنت تهرب من الناس، أليس كذلك؟ لن تتمكن من هذا.

قال والغضب الشديد يزيد صوته خشونة:

- أوه.. بحق الله! هل تحللين نفسية كل من تلتقين بهم؟ امتطي جوادك وخذي كلبك وعودي إلى منزلك، ساري آثرتون، إياك والعودة إلى هنا. لا أريد أن تكون لي صلة بك بعد الآن!

لم تفتقد ساري قط إلى الشجاعة.. بل قالت بثبات:

- سأذهب.. ولن أعود.. لكنك مخطىء، فأنت تعرف أنك لن تستطيع إدارة ظهرك للحياة.

خالته للحظة سيضربها، ثمّ تعالى من الكلب زمجرة تحذير.. فقالت: «تعال رستي».

سارت على حافة الصخور إلى حيث تركت الزهرة. لم تكتشف حتى بدأت تفك الرسن أنها ترتجف.. اعتلت صهوة الفرس تحثها على الانطلاق بكعبي حذائها ولكن الدموع منعتها عن الرؤية.. تباً لهذا الرجل.. تباً له.. تباً له! فليحتفظ بأملاكه الشينة لأنها لن تضع قدمها فيها مرة أخرى.. بدأت الزهرة تسير سيراً وئيداً.. وعلى وقع حوافرها رنّت جملته الكريهة في رأسها مرة إثر أخرى: لا أريد أن تكون لي صلة بك.

ساعدها الجري السريع على تهدئة أعصابها.. ولكن ما إن خلعت السرج عن الفرس حتى أحست بأن مشاعرها تعود إلى التوتر.. تصاعد غضبها لأن جيرالد والولدين سيحرمون من الغابة والشاطىء اللذين اعتبروهما ملكاً لهم تقريباً.. أجل.. إنها غاضبة فعلاً.. فهو ينبذها هي بالذات.. وهذا ما آلمها ففي أعماقها اعترفت بأن في مارتن ريڤز شيئاً ما جذبها منذ البداية.. لقد كان مختلفاً بشكل جذري عن كل الرجال الذين عرفتهم.. لكنه قطعاً لم ينجذب إليها، بل نفر منها.. لا.. لم ينجذب قطُّ إليها.. بل يعتقدها فتاة شديدة الاعتزاز بنفسها، تلقي العظات بزهو.. وقد تكون هكذا.. الآن وقد عادت إلى المنزل تساءلت كيف تجرأت على القول لرجل مثل مارتن ريڤز إنه يهرب من الحياة؟ ارتجفت

من الحرج لأنها تذكرت هذا. . لا شك أنها مجنونة. .

ما إن أنهت ساري عملها، حتى شعرت بأنها أفضل حالاً. . ما قيل قيل ولا مجال للعودة إلى الوراء.

تلقى أخوها الخبر بهدوء يثير الدهشة:

ـ حسناً. . إنه يمارس حقه. . فالأملاك أملاكه. . كنا في السنوات الماضية محظوظين بشكل استثنائي، ولكن ليس على هذا أن يدوم إلى الأبد. . والآن، هلا حاولت ترتيب هذين الأشعثين لتنطلق إلى الكنيسة؟

يعتبر بيت ارتداء البزة والقميص وربطة العنق مهمة شاقة، هكذا رمت ساري نفسها إلى مهمات اليوم الشاقة كأي يوم أحد. . ولأن عند الولدين مدرسة في اليوم التالي ذهب الصبيّان إلى النوم باكراً، وقالت ساري لأخيها بأسى:

ـ من الأفضل أن أذهب. . فسأستيقظ في السادسة صباح الغد.

ضغط على كتفيها في إيماءة تدلّ على عمق حبه لها.

ـ شكراً ساري. . لا أعرف ماذا أفعل بدونك. . أنت عون حقيقي لي. . أعرف أن الولدين لا يفتقدان أمهما كثيراً بسبب وجودك هنا وقيامك بإعداد أشياء كالبسكويت وفرك ما وراء آذانهما.

ـ هذا أقل ما يمكنني جيرالد. . لقد جعلت أنت ولي آن من هذا المكان بيتاً لي. . وليس كل الزوجات مثلها. . هل راسلتها اليوم؟

ـ أجل. . أنا أراسلها يومياً تقريباً، لكن هذا ليس بديلاً عن رؤيتها. . ليتنا نعرف ما إذا كانت العملية الجراحية ناجحة. . لكن سيمضي أسبوعان قبل أن نعرف.

مرر أصابعه في شعره الذي لم يكن مرتباً. . وأردف:

ـ أكره أن أفكر فيها وهي وحيدة هناك، عاجزة في سرير المستشفى. . وماذا إن لم تنجح العملية الجراحية ساري؟ ستبقى في الكرسي المتحرك بقية حياتها.

ـ إن لم تنجح، ستتكيفان مع الأمر. . لكن جراح الأعصاب كان

متفائلاً جيرالد. . لذا ليس أمامنا سوى الانتظار.

تألم قلبها عليه، فهي تعرف كما يعرف الجميع مدى الرابط القوي بين أخيها وزوجته لي آن الدافئة القلب، السهلة المعشر. كانت تعشق زوجها الطويل الطيب وولديها الصغيرين، إذ لم يغب عن ذهنها قطُّ عيشة الفقر والحرمان اللذين عاشتهما في مخيم معزول لقطع الأشجار في «نيو برونسويل». . وسلسلة الأحداث التي أدت إلى تعرفها بجيرالد خلال وجوده في إرسالية زراعية، واعترافهما المباشر بأن كلا منهما هو الشخص الذي يحتاجه الآخر لإكمال حياته. . ولكن سرعان ما عانت لي آن من ألم في العمود الفقري أجبرها على النوم على ظهرها فوق الأرض. . ثم راحت تتنقل من أخصائي إلى آخر حتى ذهبت منذ شهر لرؤية جراح عالمي شهير في مونتريال، أخبرها بأنها قد تشفى إن أجرت عملية جراحية. . خلال غيابها، أخذت ساري تتنقل ما بين منزل المزرعة وما بين شقتها في المدينة، تساعد ما وسعها إلى ذلك سبيلاً وهذا ما كانت تفعله يوم كانت لي آن مقعدة في المنزل.

شد جيرالد أذن ساري ملاطفاً:

ـ قودي بحذر. . أختاه! ما هو برنامجك الأسبوعي؟

ـ أستطيع المجيء إلى المزرعة غداً بعد العمل. . اشترى لنا ريكي ليوم الثلاثاء تذاكر لمسرحية المركز الاتحادي.

ابتسم: أحسني التصرف!

حركت أنفها له:

ـ ألا أحسن التصرف دائماً؟ المشكلة أنني لا أرغب إلا في هذا مع ريكي.

ـ إنه شاب بهي الطلعة وهو إلى ذلك طبيب ماهر.

ـ أعرف. . ربما أنا السبب. . ربما أنا متطلبة أكثر من اللازم. . المشكلة أنني لم ألتقِ قطّ بشخص يجعلني أشعر بذرة مما تشعر به أنت ولي آن. . ولأنني أرى مدى حبكما أرفض القبول بما هو أقل.

ـ من المؤسف أن يكون جارنا الجديد منفراً هكذا.

ـ أوه.. هو.. لا يريد رؤيتي مجدداً.. لقد أوضح لي هذا بما لا يقبل الشك في الصباح.

ـ حسناً.. أختاه ما زلت في الثالثة والعشرين ولم تبلغي بعد مرحلة الوضع على الرف.

ـ تزوجت بلي آن وأنت في الثالثة والعشرين.

ـ ربما تحتاجين أنت وريكي إلى بعض الوقت.. فعلى أي حال، أنت تواعدينه منذ أربعة أو خمسة أشهر فقط.

لثمت وجنته: ربما.. يجب أن أذهب حقاً.. اعتن بنفسك جيرالد! أراك غداً في الرابعة مساء.. لا تنسى إخراج شيء من الثلاجة للعشاء.

ـ لن أنسى.. وداعاً ساري.

تبعد شقتها عن المزرعة حوالى أربعين دقيقة.. إنها شقة من دزينة شقق في مبنى تجاري مبزته الرئيسية موقعه في شارع تحفه الأشجار لا يبعد عن المستشفى سوى خمس دقائق سيراً على الأقدام.. نامت كالميت، فعطلة الأسبوع في المزرعة لم تكن مريحة البتة.. في الصباح الباكر أيقظها المنبه بحدة من نوم عميق.. فاستحمت وتناولت الفطور، ثم خرجت سيراً إلى عملها.. كان الضباب الفضي يعم المكان والجليد ينتشر فوق العشب وعلى أطراف الأشجار العارية.. سحبت ساري أنفاساً عميقة من الهواء البارد.. سعيدة بأنها ما تزال حية.

دخلت إلى المستشفى من باب جانبي.. وما إن مرت بالأبواب المتأرجحة التي تفضي إلى قسم المختبر حتى عادت إلى الروتين.. ولأن في الموظفين نقصاً، ظلت مشغولة طوال اليوم.

يوم الثلاثاء توجهت مباشرة إلى شقتها بعد العمل.. وهناك استحمت بالمياه الساخنة التي أبعدت عنها التعب، ثم غسلت شعرها وجففته وطلت أظافرها بالأحمر.. كان فستانها طويلاً واسع الأكمام من التافتا البراق المطبّع بالورود على أرضية سوداء، وانتعلت حذاءاً جلدياً طرياً وارتدت

فوق الفستان معطفاً عاجياً من الصوف «الموهير» وهو هدر للمال قامت به في لحظة تهور في الشتاء المنصرم، أما ماكياجها فكان رائعاً فقد ظللت عينيها بلون ذهبي وآخر أخضر ورسمت شفتيها بلون أحمر فاتح ولمّا انتهت وقفت تتأمل نفسها أمام المرآة.. ماذا سيقول مارتن ريفز لو شاهدها الآن؟ هل سيظل على اعتقاده بأنها فتاة ريفية غير محنكة، فتاة يمكن التخلص منها؟ على الأرجح..

رن جرس الباب، فهرعت تفتحه:

ـ مرحباً ريكي. أدخل.. أنا جاهزة في الوقت المحدد!

الطبيب ريكي فيلدنغ دقيق في مواعيده، منظم في حياته. الليلة كحاله دائماً، كانت أناقته كاملة.. فكرت ساري بطريقة لا واعية أن ترتيبه هو ما يزعجها أكثر من أي شيء آخر.. وفي هذه اللحظات فكرت في صفاتها: إنها متهورة، غير مرتبة، تتمتع دائماً بما هو غير متوقع. قد يضحك ريكي متساهلاً بسبب عاداتها الغريبة، ولكنها تشعر بأن هذه الضحكة ستتلاشى ما إن يتزوجا.

ـ تبدين جميلة حلوتي.. ورائحتك زكية أيضاً.

ـ إنه العطر الذي أهديتني إياه في عيد مولدي.

كان ريكي قد حجز طاولة في مطعمهما المفضل، وهذا دليل آخر على صواب تفكيره.. استمتعت ساري بالعشاء: ما أروع أن يطهو شخص آخر نيابة عني.. وما أروع أن أعرف أن هناك من سيجمع الأطباق المتسخة ويغسلها!

قال ريكي: «هذه أنانية منك.. سأكون سعيداً إن عادت لي آن إلى منزلها.. أنت تعملين جاهدة ساري.. أعرف مدى المشقّة التي تعانينها بسبب العشرين ميلاً التي تجتازينها بالسيارة وبسبب العمل المنزلي لعائلة».

إنه على حق بلا شك، ولكنها غير قادرة على فعل شيء.

ردت: «أمسية كهذه بين الوقت والآخر هي خير وصفة. كم الساعة

الآن؟ ألا يستحسن أن نذهب؟»

كانت التمثيلية خفيفة ومضحكة جداً. . ضحكت ساري حتى دمعت عيناها، وكانت الساعة تقارب الحادية عشرة حين شقا طريقهما إلى المخرج حيث برد نيسان، وأحست ساري بالرجفة تسري في أوصالها بعد دفء المسرح. .

قالت متلمرة: «لا أظن أن الصيف آتٍ أبداً».

ـ إنه طقس رهيب. . أتريدين بعض القهوة قبل أن نعود إلى المنزل؟

ـ ولمَ لا؟ شكراً ريكي، لقد استمتعت حقاً بالأمسية.

وفي هذه اللحظة دفعهما شخص ما بمنكبه، فمالت قسرياً نحو ريكي الذي سألها: «لماذا يحدق هذا الشخص إلينا؟ أتعرفينه؟».

نظرت من فوق الحشد ولم تجد صعوبة في معرفة من يعني ريكي بكلامه، فالرجل الواقف أمامهما كان أطول من معظم الموجودين. . أحست ساري بقلبها يخفق بشكل غير مريح، فهذا مارتن ريڤز وفي عينيه ازدراء مزعج جعلها ترتدّ إلى الوراء.

أمسكت ذراع ريكي وهمست:

ـ إنه جارنا الجديد في المزرعة. . لماذا ينظر إليّ هكذا؟

فيما كانت تتساءل ارتدّ مارتن ريڤز على عقبيه وابتعد ثم سرعان ما ضاع في الزحام.

قال ريكي معلقاً:

ـ إنه رجل فظّ المظهر. . كيف تعرفت إليه؟

ـ آه. . لقد اصطدمت بسيارته. . ثم ضبطني أعتدي على أملاكه.

أحست بأن الفرح الذي شعرت فيه في الأمسية تدمر، وقال ريكي بجفاء:

ـ هذا ما يفسر الأمر.

لم تكن ساري موافقة على كلامه ولكنها لا تريد مجادلته.

قالت لتغير دفة تفكيرها:

ـ ما رأيك بالقهوة التي دعوتني إليها؟ ثم من الأفضل أن أعود إلى المنزل. . فلدي عمل في الصباح الباكر.

لم تستطع ساري نسيان المصادفة الصغيرة البشعة. . وفي الأيام التالية كانت عيناه الرماديتان المزدريتان تقفزان أمامها فجأة وكان عزاؤها الوحيد هو عدم ظهور مارتن ريڤز في المزرعة. . وجاءت نهاية الأسبوع فمضت تعمل بنشاط كالمعتاد، ثم جاء يوم الاثنين مجدداً فعادت إلى المختبر. . يوم الخميس ليلاً كان لدى ساري دوام ليلي، ثم عملت طوال يوم الجمعة. في الساعة الرابعة من هذا اليوم حين دخلت إلى طريق المزرعة الداخلي كان أول ما رأته هناك المرسيدس السوداء المركونة قرب مخزن الغلال ثم رأت جيرالد ومارتن ريڤز واقفين إلى جانبها يتحدثان بتوافق.

كانت ساري متعبة كثيراً لذا بدا لها هذا اللقاء القشة التي قصمت ظهر البعير. أوقفت سيارتها أبعد ما يكون عن المرسيدس ثم ترجّلت. حينما استدعاها جيرالد، لم تخف امتعاضها فما تزال مرتدية زي الممرضات. . رداء أبيض ضيق وبنطلون أبيض أيضاً، كانت لوحة اسمها الذهبية على صدرها الأيسر، وبدت حول عينيها الظلال أما شعرها الأحمر فكان فاقداً كل الألوان الحمراء. . لف جيرالد ذراعه على كتفيها، وقال بلطف:

ـ تبدين منهكة.

ـ هذا ما أعتقده. . أين الولدان؟

ـ يلعبان عند أسرة لاتيمير.

لأن ساري لم تكن قط فظة، لم تجد خياراً سوى القول ببرود:

ـ مرحباً سيد ريڤز.

ثم التفتت إلى أخيها الذي سألها: هل كان يومك سيئاً؟

فردت: بل كان فظيعاً، كان عندي دوام ليلي ليلة أمس وعملت اليوم أيضاً. . ولدي عمل يوم الأحد.

ـ إذن سنجلسين هذا المساء وترفعين قدميك، إياك أن تفعلي

شيئاً!.. هل تسمعينني؟

ردت بمرح: «حاضر سيدي».

تثاءبت لا إرادياً وفركت عينيها بطريقة طفولية.

ـ أعتقد أنني سآوي إلى فراشي في الساعة التاسعة.

سمع الثلاثة رنين جرس الهاتف في المنزل فسارع جيرالد يقول: «عفواً».

قال مارتن ريفز: أظن أننا انتهينا يا جيرالد.

صاح جيرالد وهو راكض:

ـ لا.. مهلك لحظة.. هناك شيء آخر أريد أن أطلبه منك.

انفجر غضبها مجدداً.. ولكن في هذه المرة لم تحاول إخفاءه فصاحت بعينين ملتهبتين:

ـ لا تقلق.. لن تضطر للوقوف معي والتظاهر بالأدب، فهذا آخر ما أتوقعه منك.. لكن أجبني هل تكره كل النساء كمبدأ عام؟ أم تكرهني أنا على الأخص؟

رد بهدوء: ليس هذا المكان أو الزمان المناسبين لتسألي سؤالاً كهذا.

ـ لماذا؟

ـ قد يظهر زوجك في أي لحظة.

لا شك أن أذنيها توهمانها: ماذا؟

قال متوتراً: «لقد سمعت ما قلت.. لماذا لا تتخلين عن نظرة البراءة؟ لست في مزاج رائق للتلاعب.. أنت سافلة مزدوجة تعبثين مع رجل آخر من وراء ظهر زوجك.. لقد رأيت الكثيرات من طرازك.. ولا أدري لماذا يزعجني الأمر هكذا، ربما لأن جيرالد رجل لطيف».

ـ جيرالد ليس زوجي.. إنه أخي.

جاء دوره ليصعق: أخوك؟

أحست وكأن عليها المضي في الحديث ليستعيد وعيه مما يبدو صدمة قوية عليه:

ـ أجل.. إنه أكبر مني بإثنتي عشرة سنة..

ـ إذن.. هل هو أرمل؟

ـ يا الله.. لا! زوجته في المستشفى في مونتريال.. إنها هناك منذ شهر وستظل هناك شهراً آخر.

ووصفت له مرض لي آن.

ـ لهذا آتي إلى هنا كثيراً، لأحاول إبقاء الأمور في نصابها.

تكلم وكأن عقله يعي نصف ما تقول:

ـ وأنت ممرضة؟

ـ لا.. بل فنية في مختبر.. أعمل عادة من السابعة حتى الثالثة، وهذا ما يعطيني الوقت للمجيء إلى هنا بعد العمل حتى أساعد جيرالد في تحضير الطعام وفي تنظيف المنزل.

ترددت ثم أردفت:

ـ لماذا لم يذكر جيرالد زوجته لي آن أمامك فعالمه كله يدور حولها وحول الولدين؟

التوت شفتاه: لم أسأله.. الواقع أنني لا أشجع أحداً على طرح أسئلة تتعلق بحياتي الشخصية، لذلك أفترض أن عليّ ألا أسأل الطرف الآخر عن حياته.

ـ لاحظت هذا.. ولكنني لا أضع خاتم زواج!

عبس: إن العديد من الناس لا يضعون خاتم زواج في هذه الأيام. ما حدث بيننا كان سلسلة من أحداث كثيرة يا ساري.. أتعترضين إن نادينك باسمك الأول؟

ـ بل أفضله سيد ريفز؟

ـ مارتن.. أرجوك.

أحست وكأن خطوة عملاقة أنجزت. فجأة بدت الدنيا كلها أكثر إشراقاً وتلاشى تعبها:

ـ ماذا كنت تقول؟

ـ حسناً. . عندما التقينا للمرة الأولى ذكرت جيرالد بعفوية تدل على أنه شخص تعرفينه معرفة وثيقة. . كانت سيارته معك وقلت إنه معتاد على متاعبك، وما إلى ذلك. ثم جئت إلى المنزل لاستخدام الهاتف فبدا الجو عائلياً. . كنت تصنعين الخبز. . كيف كان على فكرة؟

لم تستطع مقاومة مرحه: كان قاسياً قليلاً.

ـ لا عجب في ذلك، فقد أرهقته دعكاً. . ثم دخل الولدان مع جيرالد فبدا لي أنكم عائلة واحدة. . لذا لا تلوميني على استنتاجي.

ـ لا. . أفهمك. . إذن حين رأيتني مع ريكي خارج المسرح في تلك الليلة ظننتني أخون جيرالد.

وتذكرت كيف كانت قريبة جداً من ريكي فتوردت وجنتاها.

قال بفظاظة:

ـ بالضبط. . وأدين لك باعتذار ساري. . كنت في غاية الفظاظة معك.

مدت يدها إليه وعيناها الخضراوان تنظران إليه:

ـ اعتذارك مقبول مارتن.

عندما أمسك يدها شعرت بأن شيئاً هاماً قد حدث. . وكان من دواعي راحتها أن تسمع صوت الباب الخلفي الذي خرج منه جيرالد ووقف على الشرفة الخلفية. سارعت إلى تحرير يدها من يد مارتن وسارا معاً باتجاه المنزل.

قال مارتن بلهجة الأمر الواقع:

ـ كنا نسوي سوء تفاهم. . كنت تحت انطباع غريب، خلت أنها هي زوجتك.

ـ زوجتي؟

أشرقت ابتسامة واسعة وجه جيرالد:

ـ يا إلهي يا رجل. . فليكن عندك قلب. . إنها تسبب لي ما يكفي من متاعب وهي أختي!

ضم ساري بحب فضحكت له. .

ـ ألم أذكر أمامك لي آن؟

ـ أنا متأكد من هذا.

ـ غريب. . كانت هي المتكلمة على الهاتف. . العلاج يسير جيداً. . والأطباء متفائلون.

اكفهر وجهه قليلاً:

ـ لكن ما زالت تتألم كثيراً. . كم سأكون سعيداً عندما ينتهي كل هذا.

شبكت ساري ذراعها بذراعه:

ـ سأعد لكما فنجان شاي قبل أن أبدأ بتحضير العشاء. . لماذا لا تنضم إلينا مارتن؟

ـ لا. . لن أتناوله معكم. . شكراً. وصلت آخر مجموعة من الكتب بالأمس، وأنا أحاول ترتيب مكتبتي. هل اتفقنا على كل شيء جيرالد؟

ـ كل شيء إلا الموعد.

ـ لا أعرف هذا بشكل أكيد. . ربما في منتصف الأسبوع القادم.

حارت ساري بأمره فهو سهل المعشر مع جيرالد، ولكنه لا يريد البقاء لاحتساء فنجان شاي معها. سألت: «عمّ الاتفاق؟»

قال مارتن: «كان جيرالد في غاية اللطف إذ قَبِلَ أن يستقبل جوادي في مخزنكم مدة شهر أو يزيد، وذلك حتى يتم بناء اسطبل في أملاكي. . كان لدى أسرة بارنستيد كل شيء، من غرفة «صونا» إلى ملعب كروكيت ولكنها لم تكن تملك اسطبلاً».

ضحكت ساري:

ـ لأن آنا بارنستيد تكره الخيل. . كانت تقول: مقدمتها تعض ومؤخرتها ترفس، أما وسطها فمرتفع كثيراً عن الأرض.

ضحك ثم قال:

ـ سأتصل بك حالما أعرف شيئاً.

هز رأسه نحو ساري وانطلق إلى سيارته.

ما إن دخلا حتى وضعت ساري غلاية الماء على النار وقالت لأخيها بصوت منخفض:

ـ ليته بقي أظنه يمضي وقتاً رهيباً بمفرده.

ـ إنه خياره يا أختاه.

أحست بالتعب مجدداً وبألم عضلاتها وبحريق في عينيها.. فتمتمت موافقة.

أردف: «سيأتي إلينا في الوقت المناسب.. على أي حال، إن رسا جواده هنا فسيأتي ويذهب كثيراً».

لم تفكر في هذا..

ـ ماذا قالت لي آن؟

جلست ساري تصغي ولا تصغي إليه فقد كانت غارقة في أفكارها.. فكرت أن الأمور بينها وبين مارتن ستتغير فقد ظنها متزوجة ولا شك أن لهذا فرقاً كبيراً.

* * *

٣ ـ من يطفىء الشوق؟

لم تلاحظ ساري من قبل كيف تمر الأيام بطيئة حين يترقب المرء مكالمة هاتفية أو زيارة.. وكأنما الطبيعة تسخر من آمالها جميعاً، فالربيع بدأ الزحف وها هو كورس الطيور المغردة تصدح تغاريده في كل صباح وها الحقول تجف ورقع العشب الأخضر تهب من تحت الأرض.. أخيراً عادت طيور السنونو تنعم بشمس أيار الدافئة.

كان هذا كله في العادة يدفع ساري إلى العمل والغناء معاً.. لكن وصول الربيع هذه السنة زاد من حدة التوتر الذي كانت أسبابه مجهولة لها.. والغريب أنها لم تعد راضية عن روتينها اليومي وعلى الأخص عن مواعيدها مع ريكي.. أما جواد مارتن فقد تأخر.. وحالة لي آن تطورت منذ أصيبت ويا للأسف بأنفلونزا ستؤخرها عدة أيام عن الشفاء.. بسبب هذا، غلظ طبع جيرالد الطيب عادة وساءت طباع الولدين. لم يسر شيء كما يبدو على ما يرام منذ انتقال مارتن ريفز إلى الجوار.. وكأنما وجوده غير المرئي يظللهم بغمامة.

جلست غارقة في كآبتها دقائق أخرى، ثم استولت عليها روح المرح مجدداً.. كانت تتصرف كبطلة قصة، تضع اللوم في كل شيء على البطل الذي وصفته بالنذل؟ عليها أن تذهب إلى المخزن لشراء بعض الشوكولا حتى تعدّ للولدين قالباً من الحلوى بالشوكولا، فلا شيء كقالب حلوى بالشوكولا يفرح قلب الأولاد.. تناولت مفاتيح سيارتها ونادت جيرالد تبلغه بذهابها.. خرجت إلى الريح التي راحت تصفق تنورتها الجينز

وأحست فجأة أن غمامة الكآبة التي غطت مزاجها في الأيام الماضية قد ارتفعت.

عندما نزلت سلم المخزن رأت المرسيدس السوداء تنعطف إلى داخل الموقف وتتوقف قرب سيارتها. . خرج مارتن وشاهدها فانتظر ليكلمها. . ولم تتوقف لتحلل معنى خفقان قلبها، وقالت: «مرحباً».

ـ مرحباً ساري. . كيف حالك؟

ـ بخير.

نسيت أنها منذ نصف ساعة كانت بعيدة عن كل خير. .

أضافت باندفاع: «مارتن، لماذا لا تأتي لتناول العشاء معنا؟ لقد أرسلت لنا أسرة لاتيمير بعض «الأسكالوب» وسأعد قالب حلوى بالشوكولا. .»

نظر إلى وجهها البيضاوي المشع. . في ما بعد تساءلت عما إذا كانت قد تخيلت السعادة التي بدت على وجهه بسرعة. . ولكنه هز رأسه ببطء:

ـ لا. . ساري.

ـ ولمَ لا؟

تردد ثم بدا أنه توصل إلى قرار.

ـ أنا قادر على إعطائك أعذاراً مهذبة، ولكنني لن أفعل هذا. . أعتقد أنك تستحقين سماع الحقيقة.

ترقبت ما سيقوله ويداها تطبقان بقوة على كيس المشتريات.

ـ لا أدري إن كنت قادراً على شرح الأمر لك، ولا أدري إن كنت أنا نفسي أفهم السبب. . الأمر كل الأمر أنني لا أريد التورط مع أحد.

ـ تتورط؟. . أنا. . أنا لا أفهمك. . تتورط مع من؟

ـ معك. . على الأرجح.

ـ معي؟

ـ على الأقل مع عائلتك. . لكن معك أنت أساساً، أنت شابة جميلة ساري بل أجدك جذابة وخلابة، لكنك تستحقين من هو أفضل مني.

ـ ألا تعتقد أنّ لي رأياً في المسألة؟

ـ لا. . فلن أنفعك أنا بشيء.

نقلت مشترياتها من ذراع إلى أخرى. . أرادت أن تفهم ما يقول. . وقررت محاولة طريقة أخرى، وقالت بجرأة:

ـ هل أنت متزوج؟ أهذا ما تعني؟

ـ لا. . أنا مطلق. . وقد أكون أرملاً، لا أدري.

إنها زلته الأولى، ففي صوته مشاعر جياشة. . سألت ساري بحذر: «ألا تعرف مكانها؟»

خرجت الكلمات جبراً من حنجرته:

ـ ولا أعرف ما إذا كانت حية أم ميتة.

ـ أما زلت تحبها؟

ـ ولا أعرف هذا أيضاً ولا أريد الحديث عنها، لكنها السبب الذي يجعلني أرفض المجيء إلى منزلكم الليلة ساري، ويجعلني أتجنب مصادقتك على أساس عادي. . لا شيء عندي أعطيه.

أحست أن حنجرتها أطبقت من فرط التوتر. أخذت تنتقي كلماتها بحذر فقد بدا لها أن من المهم أن تكون صادقة معه.

ـ ألا يجب أن تحاول نسيانها؟

ـ ليس الأمر بهذه البساطة.

هزت كتفيها بعجز:

ـ إذن أنا آسفة. . رغبت في التعرف إليك مارتن. . أنت مختلف عن جميع من عرفتهم.

ـ إنه للطف منك أن أسمعك تقولين هذا. . اعتني بنفسك. . تبدين متعبة.

أحست أنها ستبكي:

ـ سوف أفعل. . يجب أن أذهب. . وداعاً.

ـ وداعاً.

عندما وصلت ساري إلى منزل المزرعة، كانت رغبتها في البكاء قد زالت.. ما إن دخلت الباب حتى طالبها الروتين المنزلي بالعودة.. ولكنها اكتشفت منذ زمن بعيد أن العمل المنزلي يشغل اليدين، ولكنه يترك الفكر حراً. فكرت في كل ما قاله مارتن.. لقد بذل جهده ليكون صادقاً معها، وهذا بحد ذاته نوع من الاطراء.. لقد اعترف أنه يجدها جذابة.. لكن الماضي يمسك بخناقه، ربما أحس أنها تجذبه لذا يريد تجنبها.

ماذا حدث بينها وبين مارتن ريفز منذ التقيا؟ الغضب والخلاف.. وابتسامة نادرة، هذا كل شيء. مع ذلك فمجرد التفكير فيه يرسل قشعريرة غريبة إلى أوصالها كلها.. تسمّرت يداها، لا يمكنك الوقوع في حب رجل لا تعرفينه.. أيمكنك ذلك؟

سأل بيت عما إذا كان بإمكانه فرك وعاء الطبخ وأخذ جيرالد يضع شرائح «الاسكالوب» في الخبز.. سألت بصوت هامس:

ـ جيرالد.. حينما التقيت لي آن، كم احتجت من الوقت لتعرف أنها من تريدها زوجة؟

كانت تشغل نفسها بمقلاة عميقة، وفاتها ملاحظة النظرة السريعة المتسائلة التي أرسلها جيرالد إليها.. قال بمرح: «في الحال.. كنت أعرض بقرة صغيرة على الحلقة، ثم رفعت نظري فرأيت هذه الفتاة السوداء الشعر البنية العينين، تستند إلى السياج وتراقبني.. فتركت الحبل من يدي وكان أن هربت البقرة، وكان أن صرفت من الحلقة الدراسية بسبب إهمالي. ما من أحد استطاع أن يفهم سبب ارتكابي عملاً غبياً كهذا.. لأنني كنت المرشح لنيل الأولوية..»

قالت بحزن:

ـ هكذا تعارفتما.

ـ أجل.. وكنا محظوظين.. واثق أن هذا لا يحصل دوماً على هذا الشكل.

ـ لا.. لا أعتقد هذا.. بيت ستنتزع النقوش عن وعاء الطبخ إن فركته

بهذه القوة.

تجنب جيرالد الموضوع بلباقة لأنه رآها تريد تجنبه..

بعد يومين على هذا، وصلت إلى المزرعة فسارعت للدخول إلى المنزل اتّقاء المطر. عرفت ساري حالما دخلت إلى المطبخ أن في الأمر خطباً ما، فقد كان جيرالد جالساً إلى المائدة ورأسه بين يديه.. رفع نظره إليها، فصدمها مظهره.. صاحت: «ما الأمر؟»

ـ لدي صداع رهيب.. أرسلت الولدين إلى منزل لاتيمير ليلعبا. لقد عانى من هذا الصداع مرتين أو ثلاث مرات من قبل..

وبخته بلطف: أنت قلق على لي آن.

ـ ما زالت تعاني من آلام مبرحة، ليتني أستطيع أن أتحملها نيابة عنها.

قالت بهدوء:

ـ جيرالد.. حان الوقت لتذهب وتراها.

قال متألماً محبطاً:

ـ أوَلا أعرف هذا؟ لكنني لا أستطيع.. ليس لدي ما يكفي من مال.. فالبساتين لم تجنِ غلة وافرة في السنة الماضية، واضطررت إلى شراء مولد جديد، ومضخة ماء جديدة.. وهناك النفقات الإضافية التي أسدّدها للغرفة الخاصة في المستشفى.. أنا بحاجة إلى أجرة الطائرة وإلى تكاليف الإقامة في الفندق.. وهذا ما ليس بمقدوري.

سبق أن ناقشا هذا الموضوع من قبل ولكن في هذه المرة كان جيرالد يائساً بحيث لم يصغ إلى المنطق.

ـ كل ما عليّ فعله هو تأجيل قسط شهر واحد عن سيارتي إلى المصرف، وهذا سيكون كافياً لتسافر إلى مونتريال.. أرجوك دعني أساعدك جيرالد.. أرجوك! فالأمر مهم للي آن بمقدار ما هو هام لك.

ـ ساري.. لقد ناقشنا هذا الأمر سابقاً. أنت تقدمين لي خدمات كثيرة فكيف آخذ مالك فوق هذا كله. أرجوك، اتركي لي شيئاً من الكرامة!

كان قد رفع صوته بحيث لم يسمعا صوت الباب ينفتح وينغلق.

صاحت ساري:

ـ كرامة؟ ما دخل الكرامة في هذا؟ أنت ولي آن بحاجة إلى رؤية بعضكما.. والمال هو وسيلة لا غاية.. ألا ترى هذا جيرالد؟ لي آن أهم بكثير من المال.

رد غاضباً: «طبعاً. لكنني لن آخذ مالك ساري.. وهذا نهائي».

ـ أنت عنيد! أرغب في أن أحجز لك تذكرة بدون مشورتك أولاً.

ـ بحق الله ساري.. إن أقدمت على هذا فقد..

جعلتهما دقة حادة على الباب النصف مفتوح يلتفتان بسرعة.. دخل مارتن ريڤز وعيناه الماكرتان لا يفوتهما شيء من وجه ساري المتورد.. كان يرتدي معطفاً واقياً من المطر، وشعره مجعد مبلل فوق جبينه.. ودون أن يهتم بأي اعتذار قال:

ـ أنا آسف.. أراني أقاطع شيئاً ما. ومن الأفضل أن أعترف أنني سمعت قسطاً كبيراً.. لقد قرعت الباب الخلفي، فلم يسمعني أحد.. اسمعا أنا أملك رخصة قيادة طائرات.. ولقد جلب أحد أصدقائي طائرتي إلى هنا منذ أيام.. وهي واقفة تجمع الغبار. لذا ستصنع معي معروفاً كبيراً إن سمحت لي باصطحابك إلى مونتريال والعودة بك جيرالد.. أنا بحاجة إلى القيام برحلة جوية.

قال جيرالد متردداً: «ولكنك ستهدر وقتك عليّ».

ـ كنت أنوي القيام برحلة طويلة في نهاية هذا الأسبوع على أي حال.

للمرة الأولى تردد مارتن قليلاً.. ثم أردف:

ـ لكن هل ستكونين حرة لرعاية الولدين ساري؟

ـ السبت والأحد عطلتي، وإحدى زميلاتي مدينة لي بيوم لذا سأطلب منها أن تحل محلي صباح يوم الإثنين.

تهلل وجه مارتن:

ـ كل شيء على ما يرام إذن، ما قولك جيرالد؟

كتمت ساري أنفاسها.. هل سيقبل عرض مارتن؟ أم أن كرامته

ستقف في الطريق مجدداً؟

سأل جيرالد:

ـ هل أنت واثق أنك كنت تخطط للطيران؟

هز مارتن رأسه إيجاباً.. ونظر جيرالد إلى يديه المتعبتين عملاً وهما على الطاولة، ثم قال بهدوء:

ـ يمكنني أن أفاجئها.. أدخل الغرفة هكذا وأفاجئها.

أمسكت ساري لسانها.. وقال مارتن بالقدر الكافي من العفوية:

ـ ستأتي إذن؟

تبودلت رسالة رجولية بين عيني جيرالد اللوزيتين وعيني مارتن الرماديتين الباردتين. وقال جيرالد:

ـ شكراً.. أقبل بكل سعادة، متى نستطيع الذهاب؟

ـ ما رأيك بصباح السبت الباكر؟

ـ عظيم! هاي، هذا يستدعي احتفالاً..

وهو يقف ليحضر الأكواب وزجاجة المرطبات، داعب شعر أخته:

ـ آسف لصراخي في وجهك ساري.

ـ أعتقد أنني شاركتك الصراخ بما يكفي أيضاً.

وابتسما لبعضهما.

لم يمكث مارتن طويلاً. وهو يغادر سنحت الفرصة لساري كي تكلمه، كان المطر لا يزال منهمراً وثوبها الأبيض هو الإشراقة الوحيدة في الطقس المتجهم.

قالت:

ـ شكراً كثيراً لك مارتن.. سيكون لهذا تأثير كبير على جيرالد.. ولي آن كذلك.

ـ إنهما يعنيان الكثير لبعضهما.. أليس كذلك؟

ردت بحرارة:

ـ بقدر العالم كله.. لكن، ألا تحس بالوحدة هناك أحياناً؟

ـ أنا معتاد على البقاء لوحدي.

ـ هذا ليس رداً حقيقياً على سؤالي.

ـ بالطبع أشعر بالوحدة.. لكن ألا يحصل هذا لنا جميعاً؟ ألا تشعرين بالوحدة أحياناً.. ساري؟

ـ أجل.

بدا ردها الهادىء وكأنه علق في الهواء بينهما. وتحرك فجأة نحوها، ثم، وفجأة، توقف والتوتر ظاهر على جسده كله.. وتحولت قسمات وجهه إلى قناع بلون واحد: عينان غائرتان بعمق، فم قاتم، شعر أسود كثيف كالليل.. وانتظرت.. ضربات قلبها في أذنيها.

امتد الصمت.. يغني بتوتر خاص به، حين تكلم مارتن أخيراً كان صوته أجش:

ـ الصديق الذي كنتِ معه في المسرح.. بدوت على وفاق جيد معه.. لماذا لا تتزوجينه؟ لن تبقي عندئذٍ وحيدة.

كانت الحقيقة واضحة في رأسها وهي ترد:

ـ بلى.. سأبقى وحيدة.. لأنني لا أحبه.. أنا معجبة به فقط.. أتمتع بصحبته، وهو طبيب ماهر.. لكنني لا أحبه.

ـ لا تظني أن الحب هو العلاقة الجميلة المزينة بالورد الأحمر وضوء القمر.. إذا كنت معجبة به وتحترمينه، إذن فأنت أفضل حالاً.. تزوجيه وكوني سعيدة.

ـ لا أستطيع مارتن.. فأنا..

لم يكن هناك طريقة لتشرح الأمر. ولكنها وجدت لسانها يقول:

ـ أنا أشعر بلطفه، ولكن الأمر لا يتعدى ذلك، لا أشعر بأية رغبة في مشاركته حياته.

فتحت يديها بعجز:

ـ وهذا جنون حقاً.. فكل الممرضات يحسدنني لأنني أخرج مع ريك فيلدينغ الطبيب الوسيم الشهير.. وربما فيّ غلط ما.. لا أدري.

ـ لا شك أنك تعرفت إلى غيره من قبل...

ـ لا.. لا.. أبداً.

صمت قليلاً: ليتك لم تعترفي لي بهذا ساري.. لقد جذبتني منذ وقعت عيناي عليك.

هوت يداها إلى جنبيها.. كان واقفاً على خمس أقدام منها، عرفت أنه لن يلمسها.. لكن الكلمات التي قالها كانت محسوسة كاللمس.. فجأة دبّت الحركة في جسمها برقة.. إنها تعجبه.. أرادها منذ وقعت عيناه عليها.

قالت: يومذاك كنت أبدو شمطاء المظهر بشكل رهيب.. تلك السترة القديمة الكريهة والحذاء الموحل!

ـ هل تسعين إلى الإطراء؟

ـ لا!

لكنها عادت إلى الكآبة لأنها عرفت أن لا حاجة إلى الكلام فهو يريدها لكنه لن يُقدم على شيء.. لن يتقدم ولو بخطوة واحدة والسبب عهد فرضه على نفسه لا تعرف له سبباً.. وماذا عنها؟ ماذا تريد؟ هل هو الرجل الذي تنتظره.. الرجل الذي سيسكّن القلق والشوق اللذين تحس بهما كلما رأت سرباً من الأوز البري يشق أجواء السماء بأجنحته!

من الخارج، تناهى صرير إطارات سيارة ثم صفق أبوابها.. فقال بلهجة حازمة باتت تعرفها:

ـ عمت مساء ساري.

همست: «عمت مساء».

ثم امتلأت الشرفة المسقوفة بضجيج الولدين واندفع رستي إلى الداخل هرباً من المطر، وأخذ جيرالد يلقي أوامره فتشتت اللحظة الحميمة..

سأل بيت بإلحاح:

ـ أتسمحين لسوزي بالمجيء إلى هنا غداً بعد المدرسة؟

أجبرت ساري نفسها على العودة إلى حاضرها، سوزي هي صغرى أولاد أسرة لاتيمير الستة، هي طفلة سمينة، عيناها كعيني الغزال، تحب بيت كثيراً. تلحق به أينما ذهب وتتورط في كل فعل يرتكبه.

قالت ساري: إن كانت أمها موافقة فلا بأس بهذا، اذهب الآن واغسل يديك.

ـ ماذا عن العشاء؟

قالت بغموض: «بقايا طعام».

ابتسم جيرالد لها:

ـ الأمر على ما يرام.. لقد أخرجت شيئاً من شرائح اللحم من الثلاجة.. لماذا لا تجلسين ساري؟ سأقوم أنا بتحضير العشاء.

ـ سأخلع ملابسي الرسمية وأستحم.

سأل: «عم كنتِ تتحدثين أنت ومارتن؟ لقد بقي فترة طويلة عندنا».

اختل توازن تفكيرها وغزا التورد وجنتيها. تمتمت: «لا شيء».

التقطت حقيبة يدها وسارعت إلى الانسحاب، قبل أن يطرح سؤالاً آخر.

***

٤ ـ معركة ضد جدار

عرفت ساري أن لقاءها بمارتن في صباح السبت لن يتجاوز الدقائق ومع ذلك تاقت إليه بدرجة كبيرة من الترقب. سترتدي سروالاً من الجينز وستربط منديلاً حريرياً حول عنقها فهذا الزي عملي وجميل في آن.. ذهبت إلى النوم باكراً ليلة الجمعة لأنها كانت تشعر بتعب شديد.. ولكن حينما استيقظت صباح السبت عرفت أن هناك خطباً ما.. أحست بدوار وغثيان.. نهضت من السرير بحذر ونظرت إلى نفسها في المرآة باهتمام. وجدت تحت عينيها دوائر، وبدت بشرتها مشدودة ووجهها أبيض كلون الأموات.. بدت رهيبة وشعرت بأنها في أسوأ حال.. ولكنها لن تستطيع خذلان جيرالد. إن عرف أنها مريضة امتنع عن الذهاب إلى مونتريال..

سحبت بضعة أنفاس عميقة في محاولة منها لتهدئة روعها.. وسارت بثبات إلى الحمام لتستحم بالمياه الدافئة وبعدما استحمت ارتدت ملابسها وتبرجت فبدت طبيعية.

كان جيرالد شديد التوتر بحيث لم ينتبه لها، بدا أنيقاً بشكل غير معتاد.

ـ سأتصل بك من الفندق الليلة أختاه.. بيت لا تنس أنك مسؤول عن إطعام الدجاج وعن جمع البيض، وعليك يا روبي إطعام الأبقار وإحضار الحليب من منزل لاتيمير.

كان بيت يترقّب وصول مارتن من النافذة.. مع أن ساري تشك في أنه مهتم بالسيارة المرسيدس أكثر من اهتمامه بسائقها.

ـ لقد وصل دادي!

خرج الجميع إلى الخارج وساري خلفهم. . فقد شعرت بدوار رهيب. . في الشرفة، انحنت لتسوّي حذاء الصبي فدفعت هذه الحركة الدم إلى رأسها ثم استقامت بحذر وهي تشعر أنها أفضل حالاً. . ما هي إلا دقائق حتى تصبح آمنة. .

أعطى مارتن المفاتيح لبيت ليفتح صندوق «الستايشن» الذي رمى فيه جيرالد حقيبته، ثم عاد ليحتضن ولديه، أما مارتن فدار حول السيارة إلى حيث كانت ساري واقفة في ظل المنزل وذراعاها مضمومتان إلى صدرها. .

قالت بمرح:

ـ صباح الخير. . إنه يوم جميل للطيران.

ـ سأعتني به ساري.

قاومت موجة ارتجاف:

ـ كلي ثقة في ذلك.

ـ قد يصل جوادي في عطلة الأسبوع، وإن تأكدت من وصوله أتصل بك.

ـ عظيم.

اذهبا فقط. . أرادت أن تصيح مشجعة، ولكن في لحظة خاطفة انقسمت صورته إلى قسمين ثم إلى ثلاثة ثم تأرجحت وطُمست.

ـ هل أنت بخير؟

فتحت عينيها على اتساعهما.

ـ طبعاً أنا بخير، من الأفضل أن تذهبا! لا أريد أن ينزعج الولدان من وداع طويل.

عبس قليلاً ثم أجبره قول جيرالد: جاهز مارتن؟ على الارتداد عنها.

قال لها قبل أن تمشي: لا تشتغلي كثيراً، أراك بحاجة إلى الراحة.

وقف الولدان قرب ساري ينظران إلى المرسيدس وهي تتوارى،

ووضع بيت يده في يدها وقال بصوت مختنق:

ـ ليتنا ذهبنا أيضاً!

ـ لا بأس حبيبي، لكن والدتك تتحسن. وستعود إلى المنزل في نهاية العام الدراسي.

ـ إنه موعد بعيد جداً؟

ـ سرعان ما تمضي الأيام. . اسمع سنذهب إلى المتجر لتشتري لكل منكما لعبة وربما لوح شوكولا. . وسنلعبان على تلة الرمال فالنهار رائع.

مرّ اليوم بدون أن يدرك الولدان أنها مريضة وما إن حلت الساعة السابعة من ذلك المساء، حتى كانوا جالسين أمام التلفزيون في غرفة الجلوس. . وكانت ساري تشعر بصداع يكاد يشق رأسها نصفين، فلم تأكل كثيراً طوال اليوم بسبب نوبات الغثيان. وعندما أخذت حرارتها اكتشفت أنها مرتفعة. . بعدما أوى الصغيران إلى فراشهما راحت ترتقي الدرج إلى الطابق العلوي ولكن الصعود شق عليها كثيراً فقد كانت كل خطوة شاقة إلى حد بعيد. . خلعت ثيابها وارتدت غلالة مشمشية اللون مزينة بالدانتيل.

ما إن همّت بالاستلقاء على سريرها حتى سمعت أصواتاً من الطابق السفلي. لم تطفىء التلفزيون والمصابيح. . أوه. . تباً! نزلت الدرج وهي تتمسك بحاجزه فقد بدت الدنيا تميد بها، وكأنها على سطح فوق مركب. . وعندما وصلت أخيراً كان وجهها سابحاً بالعرق وقلبها خافقاً بقوة. . ستستلقي على أريكة دقيقة قبل أن تتم المهمة الشاقة في صعود السلم. . غارت على وسائد الأريكة. . ثم أغمضت عينيها. .

كان الوقت منتصف الليل عندما تقدم طيف نحيل طويل نحو مزرعة جيرالد، كان يضع يديه في عمق جيبيه وكتفاه منحنيتان وعيناه مثبتتان على سطح الطريق. سار بطريقة توحي بتلهفه. . وكأن الجهد الجسدي الذي يبذله في قطع عدد محدد من الأميال قادر على إبعاد ملاحقيه عنه. . ليست المرة الأولى التي يفعل هذا فيها. . كان يسير حتى يرهق نفسه ليتمكن من

النوم. ولن تكون الأخيرة. . رفع رأسه يقلق إلى منزل المزرعة وهو يمر به.

تباطأت خطواته. . ثم توقفت، فالمنزل مضاء كله تقريباً. . قطب جبينه. . ساعته تشير إلى أنها الواحدة والنصف. . بحثت عيناه في الطريق الداخلية، لكنه لم يجد سوى سيارتين. . إذن لا حفلة ولا لقاء سري مع الطبيب الوسيم.

اتخذ مارتن قراراً سريعاً ودخل إلى الطريق الداخلية باتجاه المنزل. ثم سار على العشب لئلا يُسمع وقع خطاه، لكنه لم يجد سيارة أخرى خلف المنزل. . عرف أن ساري بمفردها ولكنه لا يريد إخافتها. . ثم ما لبث أن شعر بأن في الأمر خطباً ما. . كيف تأوي إلى فراشها تاركة الأنوار مضاءة والباب الخلفي مفتوحاً على مصراعيه؟

طرق الباب بلطف، كان رستي متمدداً على بساطه في الشرفة المسقوفة، رفع رأسه الأنيق ولوح ذنبه بلا اكتراث. . عندما فتح مارتن الباب ودخل استلقى الكلب على ظهره طالباً منه أن يداعبه.

فرقع مارتن بلسانه ساخطاً. لقد ذكر له جيرالد مرة ان هذا الكلب غير نافع ككلب حراسة، لكن هذه هي المرة الأولى التي يختبر فيها مارتن تصرف رستي المرحب. .

تمتم: «ألن ترشدني أين تضع العائلة فضياتها؟ أين ساري، رستي؟»

قرع مارتن الباب الداخلي بين الشرفة والمطبخ. . استطاع أن يسمع الأصوات التي تصدح في الداخل. . عندما فتح الباب أصبحت الأصوات أكثر ارتفاعاً تصاحبها الموسيقى.

انحنى جبين مارتن، ونادى بصوت رقيق: ساري؟

سار إلى المطبخ ثم إلى الردهة فإلى غرفة الجلوس، وهناك على الأريكة رأى ساري نائمة.

ابتسم لنفسه ثم تقدم ليطفىء التلفزيون فلمّا حلّ الصمت المفاجىء، سمع أنفاسها سريعة، خفيفة، فسارع ينظر إليها.

كانت مستلقية على ظهرها ولحاف من الريش يغطيها حتى خصرها وخدها على يدها. . كان وجهها عدا اللون الأحمر الذي طبع وجنتيها أبيض بشدة، وكانت خصلٌ من شعرها الأصهب ملتصقة بجبينها وصدغيها. . فبشرتها ملتهبة ساخنة. . حركت رأسها بتململ وتمتمت بكلام غير مفهوم. .

خلع مارتن سترته الواقية من الريح وعلقها على كرسي، ثم جثا قربها يقول بصوت واضح:

ـ ساري! ساري. . استيقظي!

ارتفعت أهدابها ونظرت عيناها الخضراوان إليه مباشرة.

فكرت ساري أنها تحلم، فوجه مارتن غير بعيد عنها. . تلعثمت قائلة:

ـ ليتك هنا حقاً!

ثم أغمضت عينيها مجدداً.

ـ أنا هنا. . استيقظي!

على كتفها يدٌ تضغط لذا هي ليست في حلم. . إنها يد حقيقية، قوية، تضغط بدفء.

ـ مارتن؟ هل هذا أنت حقاً؟

ـ أجل. . سأساعدك في الوصول إلى السرير ساري.

ـ أظنني مريضة.

ـ وهذا ما أظنه. . .

ـ أشعر شعوراً فظيعاً.

ـ ستكونين أفضل حالاً وأنت في الفراش. . هل لديك أسبرين؟

ـ فوق.

ساعدها على صعود الدرج وكل خطوة تخطوها كانت تنهك جسمها كله. . كانت تسمع ما هو على الأرجح أصوات أنفاسها. . وجاهدت لتقول متلعثمة:

- أوصلني إلى الحمام. . أرجوك. . وأغلق الباب.
- حسناً، لكن ناديني إن احتجتني.
سمعت صوت صفق الباب قبل أن تبدأ بالتقيؤ. راح جسمها النحيل يتلوى بنوبة إثر أخرى. . وعندما لم يعد لديها ما تتقيؤه، جمعت نفسها ووقفت مستوية لتغسل وجهها ويديها.
- ساري. . هل أنت بخير؟
فتحت الباب مترنحة، بدت كل نمشة على وجهها بارزة في بشرتها البيضاء وكانت عابسة قليلاً. . فصورته تعددت حتى أصبحت نصف دزينة.
سألها: أين غرفتك؟
- هناك.
ساعدها في السير ثم دفع باب غرفتها الكبيرة التي لم تكن مرتبة كثيراً، ولكن زينتها بدت برّاقة الألوان، وفي حالة الكتب المشوشة جو من المرح، وكذلك هو الحال في الحيوانات المحنطة وفي مجموعة الصدف وهي جميعاً تتحدث عن وفرة في حب الحياة. لسبب ما ضحك مارتن.
- سأحمل إليك شربة ماء. . لكنني لن أزعجك بالأسبرين. . هل من كوب في الحمام؟
- أجل قرب علبة الأدوية. . وهناك وعاء تحت المغسلة، من الأفضل أن تجلبه كذلك.
بدا أنه غاب طويلاً مع أنه لم يغب أكثر من دقيقة، مد لها يده بكوب الماء:
- هاك. . من الأفضل أن تشربي.
حمل لطفه واهتمامه دموع الضعف إلى عينيها.
- أنا آسفة. .
وتلاشى صوتها فقد صعب عليها أن تشرح ما تعنيه.
- ليس هناك ما تأسفين عليه. . اسمعي ساري، سأبقى هنا الليلة. . يجب ألا تبقي بمفردك مع الولدين، سأنام على الأريكة. . ناديني إن

احتجت إلى أي شيء. . اتفقنا؟
قالت: «إنك تتورط. . وهذا ما لا تريده».
كان ما زال واقفاً قرب السرير، وما هي إلا لحظة حتى تسمرت عيناه على وجهها الشاحب المتعب. . كان الضوء الخافت يضفي ظلالاً على تجويف عنقها، وتجهمت عيناه الرماديتان:
- سأعتني بك بنفسي ساري. . استلقي الآن وحاولي النوم.
ولم يلحظ أي منهما كيف خرج اسمها من فمه بسهولة مطلقة.
ثم فجأة غطت بالنوم.
وعندما أصبح تنفسها أعمق وأكثر انتظاماً جلس قرب السرير وتعابير وجهه غير مقروءة، وعيناه السوداوان تنظران إلى الأرض بدون أن تريا شيئاً.
في الصباح التالي، استيقظت ساري ولكنها ظلت مستلقية جامدة تحت الأغطية. . تحاول التفكير في ما حدث بالضبط ليلة الأمس. . أكان حلماً؟. . كانت مريضة، أما الآن فلم تعد تشعر بالحرارة على جبينها، ولكنها ما تزال تشعر بتراخ وكسل وضعف في أطرافها. نظرت إلى الساعة تتوقع أن تراها الثامنة، أو حتى الثامنة والنصف، لكن العقربين الذهبيين كانا يشيران إلى الثانية. . رفرفت عينيها ونظرت مجدداً. . رمت الغطاء عنها مرعوبة ونهضت من السرير، لا تدري أين هما الولدان حالياً أو ماذا يفعلان. غار قلبها بين جنبيها، ماذا لو أصابهما مكروه؟ كيف ستتمكن من شرح الأمر لجيرالد؟
وضعت رداءها فوق ثياب النوم وهرعت إلى الردهة بقدمين حافيتين ووصلت إلى غرفتهما التي وجدتها غير مرتبة وخالية منهما. ربما هما في الأسفل. . أمسكت سياج السلم ثم ركضت تنزل الدرجات ويدها الأخرى ترفع أطراف ثوب نومها الطويل. . وبدأت تنادي «روبي!» ثم صمتت. . وتجمدت عيناها على جسم جالس إلى طاولة المطبخ فتذكرت ما حدث ليلاً.

أرجع مارتن كرسيه إلى الخلف وهرع إلى الردهة.

- ساري! ما بك؟

وهنت ركبتاها فجلست على الدرجة الأخيرة:

- استيقظت ورأيت الوقت، فأصبت الذعر بسبب الولدين.. نسيت أنك كنت هنا.

أراحت وجهها على العمود وأردفت:

- لقد ارتعبت حقاً!

- الولدان بخير.. استيقظا في الثامنة ثم تناولا الفطور وخرجا ليلعبا.. ووقت الغداء عادا ثم خرجا مجدداً.. لا مشاكل.

قالت بلهجة مذنبة:

- إذن اعتنيت بهما طوال اليوم.

- يجب أن نرعى الصغار ساري.

- لم تحسب حساب هذا عندما انتقلت إلى جوارنا.

قال بشيء من نفاد الصبر:

- لا داعي إلى مثل هذا النقاش الآن، من الأفضل أن تعودي إلى غرفتك، إلا إذا أردت أن تصابي بالتهاب رئوي.

وهذا ما أعادها إلى الوعي فتوردت وقالت تدافع عن نفسها:

- كنت شديدة القلق.

تذكرت ما قاله لها وهما على الشرفة الخلفية المسقوفة..

ثم ومض بينهما شيء كالكهرباء.. لم يسبق لها أن رأت مثل هذه المشاعر في عيني رجل.. فعلقت أنفاسها في حلقها، ولكن بدل أن تشعر بالحرج أو التوتر أحست بتصاعد كبريائها.. هذا الغريب الأسود الشعر الذي أبعد نفسه طوعاً عن أي اتصال مع البشر، يجدها هي ساري آثرتون جذابة.. إنها المرة الأولى التي تعرف فيها مقدار سلطتها كامرأة. شعرت بروحها تستجيب بفرح.

- أنت جميلة بل خلابة ساري.

تفوّه بالكلمات برقّة شديدة، وكان عليها أن تصغي جيداً وتسمعها.. مع ذلك لم يكن هناك ضرورة ليقولها.. فقد كانت مسطورة على صفحات وجهه غير العادي.

قالت: «لم يسبق أن شعرت بمثل هذا الشعور تجاه أي رجل».

- ولن أصدق أنك شعرت..

فجأة ساد مبتعداً فوقفت: مارتن..

ارتدّ يواجهها من جديد:

- لن يفيد هذا.. لن يفيد.. لا أعرفك جيداً. ولكن ما أعرفه يعجبني وأحترمه.. قد لا يبدو كلامي رومانسياً لكنه حقيقي. يستحيل أن تقوم بيننا علاقة أو تقارب.. فأنا لن أتزوج مرة أخرى ساري وأرفض أن أورطك معي. فأنا على عكس الرجال في هذه الأيام أكره العبث.

قالت بهدوء شديد: «لماذا تقول هذا؟»

- أقول إن على كل منا البقاء بعيداً عن الآخر.

- أنت تقطع أنفك نكاية بوجهك!

- لا ساري.. ليس الأمر بهذه البساطة..

أردف في محاولة واضحة لإنهاء النقاش:

- لماذا لا تصعدين إلى غرفتك لتدفئي نفسك وفي هذه الأثناء سأصنع لك الشاي والتوست.. أعتقد أن عليك أن تأكلي شيئاً.

أحست بوخزات الجوع.. وعرفت أنها هزمت قبل أن تتكلم.. مع ذلك يجب أن تحاول: «لا أنهمك مارتن».

- ليس ضرورياً أن تفهميني.. ما إن يعود جيرالد حتى أنقطع عن رؤيتك.

- لن يحدث هذا ما دام جوادك باقياً عندنا فستأتي كل يوم.

- هذا ترتيب مؤقت ساري، أظنك تخاطرين في المبالغة في الأمر كله..

جلست مجدداً تمسك ركبتيها لأنها بحاجة إلى كل ذرة من طاقتها

للمعركة.. فهذه معركة فعلية ستواجه فيها طبيعتها الدافئة المندفعة جداراً من الغرانيت الصلب.. إن الانسحاب من الحب والضحك صعب عليها، لأنها لا تستطيع سوى تخمين السبب.

قالت بصراحة: «لا أعرف شيئاً عن هذا.. كل ما أعرفه هو أنني فتاة في الثالثة والعشرين، تعرفت إلى عدد من الرجال من مختلف الأجناس قبل أن ألتقي بك.. لم أقابل قط رجلاً أردت أن أكون قربه.. فيك شيء يجذبني.. لا أدري ما هو ولماذا هو مختلف عما عند الآخرين.. قد أكون بعيدة جداً عن الواقع، ولكنني أظنك تجدني مختلفة.. فإن كان ما أقوله وقحاً فلبس في يدي حيلة.. ألا يمكن أن نعطي نفسينا فرصة مارتن؟ فلنستمر في التقابل ولنرَ ما سيحدث؟»

ـ لا.

التجأت إلى الغضب: أنت مصمم على جعل نفسك شهيداً.. أليس كذلك؟ أنت تحب عذابك ومعاناتك!

كان مارتن يستند إلى إطار الباب، فاستقام وتقدم ثلاث خطوات ثم قال بخشونة:

ـ هذا غير صحيح.. كم مرة يجب أن أكرر لك أنني لن أتزوج ثانية ساري؟ أنت خلقت للزواج، يجب أن يكون عندك زوج وأولاد وبيت خاص مفعم بالحب والضحك.. وأنا غير قادر على إعطائك هذا وأرفض القبول بإنصاف الحلول.

كان واقفاً على مقربة شديدة منها.. ولكنه وهم بعيد.. وما أغرب أن يستخدم كلماتها.. حب وضحك.. كلمات تجسد معاني السعادة والهناء.. إنما ليس لها. في موجة ضعف خطت الخطوة الأولى.. إنها مجنونة.. وأحست بالمرارة. لقد ارتكبت الغلط ذاته ثانية.. تركت لسانها يتمادى، يقول أشياء من الأفضل ألا تقال.. الحمقى يتهورون في أماكن لا ينجرأ أحد على الخوض فيها.. ألن تتعلم أبداً؟

عادت إلى سريرها مصممة على مراجعة كل كلمة قالاها لترى أين

أخطأت.. على أي حال، غفت قبل أن تبدأ التفكير ولكنها عندما استيقظت مجدداً عرفت أن الوقت هو المساء المبكر.. من خارج باب غرفتها، سمعت تشاوراً هامساً تبعه طرق حذر.

ـ عمتي ساري؟ هل أنت مستيقظة؟

تناولت رداءها بسرعة ووضعته على كتفيها: ادخل!

فتح بيت الباب، ولحق به روبي يحمل صينية ليعلن بيت:

ـ نحمل إليك العشاء.. أما زلت مريضة؟

قالت بحبور:

ـ أنا أفضل حالاً الآن.. أوه، روبي، يبدو الطعام رائعاً!

قال روبي: لقد صنعت الشاي والتوست.. وحضّر مارتن البيض.

قال إن باستطاعتنا مناداته مارتن.

قال بيت متفاخراً:

ـ وأنا قطعت قالب الحلوى.

ابتسمت ساري.. فقطعة الحلوى كانت أبعد من أن تكون مستقيمة الزوايا، وهناك آثار أصابع على الكريما..

قالت بحرارة: «شكراً لكما.. هل تناولتما العشاء؟»

قال بيت بلهجة المنتقد: «تناولنا الدجاج.. مارتن طباخ ماهر».

أضاف روبي: «أراني كيف يعمل محرك السيارة.. إنه رجل مرتب».

ولأن ساري لا ترغب في التحدث عنه سألت:

ـ ماذا فعلتما طوال النهار؟

كان البيض المخفوق لذيذ وهاجمته بنهم.

قال بيت: «لعبنا بحفرة الرمال.. ثم ذهبنا إلى منزل لاتيمير.. عند سوزي قطة صغيرة جديدة، وجهها أبيض».

ظل الولدان معها حتى أنهت طعامها، ثم حملا الصينية إلى المطبخ.. فاستحمت ساري وغسلت شعرها وارتدت تنورة صوفية طويلة رمادية وكنزة بيضاء.. إنها ثياب مريحة للكسل.. أحست أنها أفضل حالاً

بكثير، فقد ذهبت عنها الحمى والغثيان مع أن تجفيف شعرها تركها ضعيفة متعبة.. أخذت كتاباً من رفوف كتبها، ونزلت إلى الأسفل.

وجدت مارتن والولدين في غرفة الجلوس، الولدان يكتبان فروضهما المدرسية ومارتن غارق في عمل مكتبي خاص به. حالما دخلت رفع بصره، وما هي إلا نظرة واحدة حتى استوعب كل شيء بدءاً من الشعر البراق الناري إلى تنورتها الرائعة التفصيل..

سأل: «أتشعرين أنك بحال أفضل؟»

ردت بأدب: «كثيراً.. شكراً لك.. وشكراً للعشاء، كان لذيذاً».

جلست فوق الأريكة ودست قدميها تحت طيات تنورتها، وفتحت الكتاب.. وران الصمت الذي لم يقطعه سوى تنهدات بيت الثقيلة وهو يتصارع مع تمارين الكتابة.

صممت ألا تكون مدينة له أكثر من هذا، لذا أشرفت بنفسها على موعد نوم الولدين. ولكنها لاحظت بشيء من الغيرة كيف قال الولدان له بحرارة كبيرة «عمت مساء» ولم يكتفيا بذلك بل أقنعاه أن يقرأ عليهما بضع صفحات من قصة «جزيرة الكنز» قبل أن يتوجها إلى غرفتهما.. أظهر موهبة غير متوقعة في التقليد حتى بدا لونغ جون سيلفر الشرير كأنه حقيقة أمامهم.

وضع الكتاب من يده رغم الاعتراضات التي أطلقها الصغيران، فقالت ساري بفظاظة:

- أرجو ألا نحلم جميعاً بكوابيس.

ضحك مارتن: «هذا هراء.. الأولاد يحبون هذه الأشياء».

سألت نفسها بصمت: وكيف تعرف؟ ألديك أولاد؟ رافق الولدان إلى الطابق العلوي، فلحقت ساري بهم لتتأكد من أنهما نظفا أسنانهما وأيديهما ووجهيهما قبل أن يدخلا إلى الفراش.. ثم نزلت ثانية فوجدت مارتن غارقاً مرة أخرى في صفحة خلف صفحة من الموازنات والمعادلات العويصة. بدا كأنه ينوي البقاء هنا.. فقالت بلطف:

- لا حاجة بك للبقاء هنا الليلة.. أنا أفضل حالاً.

لم يرفع رأسه:

- لا بأس في هذا.. من الأفضل أن أبقى فقد تعود الحمى، كما أنني لا أحب فكرة بقائك بمفردك في المنزل الكبير مع الولدين، مع هذا الكلب الخنوع.

- إنه ليس بالخنوع.. إنه كلب رعاة أصيل!

- أرى أنك أصبحت أفضل حالاً.. لقد عادت إليك روح القتال مجدداً!

- أنت تثير السخط! يجب أن تذهب إلى منزلك.. فقد بدأ الولدان يتعلقان بك وهذا ما لا ينسجم مع مخططاتك، أم لعل الأولاد استثناء على القاعدة؟

اشتد ضغطه على فكه قليلاً، ورمى القلم من بين أصابعه الجميلة النحيلة وران صمت مطبق.

همست ساري: «قلت ما هو رهيب.. أليس كذلك؟»

- انسي الأمر ساري.. ولا يهمني ما تقولين لأنني باقٍ الليلة.

التقطت الكتاب وراحت تنظر إلى صفحاته بدون أن تراها.. لا شك أن لديه ولداً.. لا تفسير آخر لردة فعله تلك.. ألن تتعلم أبداً أن تصون لسانها؟ فهي لا ترغب في إيلامه بل العكس هو الصحيح إذ تتوق لمساعدته لتذيب الثلج الذي يغلف الدفء والحب اللذين تقسم أنهما موجودان في أعماقه.

مرت الدقائق ببطء، رأت مارتن يخرج آلة حاسبة من جيبه ويبدأ بتسجيل بعض الأرقام على ورقة.. أخيراً استحوذ الكتاب على اهتمام ساري، لكن عندما انتهى الفصل وجدت عينيها تتركان الصفحة وتتحولان إليه.. ما يحيط بها مألوف، مع ذلك بدا الجو مشحوناً بسبب وجود مارتن. إن نظر إليهما أي غريب شاهد منظراً بيتياً لطيفاً. أحست بأنفاسها تعلق في حلقها.. الولدان الصغيران في الفراش، والرجل والمرأة جالسان

بتوافق في غرفة الجلوس الحميمة، في وقت سابق قال لها مارتن إنها امرأة خُلقت لتكون زوجة وأماً.. وهو على حق.. لكن في أعماقها اقتنعت أكثر فأكثر أن الرجل الذي تريده هو الرجل الذي لن تستطيع الحصول عليه، مارتن ريفز.. لم تفهم كيف أو لماذا يحدث هذا، تعرف فقط أنه يحشر نفسه في أفكارها وعواطفها بطريقة تخيفها.. فهي تشعر أن لا قوة لها على المقاومة. حاولت أن تقول لنفسها إنها مخطئة وإنه عنيد بارد وإنها لا تعرف في الواقع شيئاً عن ماضيه، عن عائلته، وأصدقائه وزواجه.. لكن لم يكن لهذا تأثير كبير.. طالت نظرتها إلى جانب وجهه وإلى عبوسه الخفيف المركز وإلى شعره الأسود الكثيف.. ثم أحس بنظرتها ترفع رأسه:

ـ ما بالك؟

لم تعد ساري قادرة على منع نفسها من النورد فتمتمت:

ـ لا شيء.. أعتقد أنني سآوي إلى فراشي مارتن، فأنا متعبة.

ما إن وقفت حتى وقف، بدا وكأنه مشدود بمغناطيس قوي دفعه ليقف قربها.

ـ لا تقلقي بشأن الولدين سأوقظهما بنفسي غداً ليذهبا إلى المدرسة.. سأعتني بهذا.. نامي نوماً هنيئاً.

ـ أرجو أن تنام أنت أيضاً نوماً هنيئاً.

ونظرت إليه فشعرت كأن كل الوجود ضاق وانحصر في عينين رماديتين قريبتين منها حتى أحست أنها تغرق في أعماقهما.

قال بفظاظة: إذهبي إلى النوم ساري.. أراك في الصباح.

لن يكون هناك شيء سوى هذا، لقد انفتح الباب بينهما ثم أقفل مرة أخرى. لم ترم ساري بنفسها على ذلك الباب لتضربه بقبضتيها بل أقنعت نفسها بأن تقول برقة:

ـ تصبح على خير مارتن.

ثم ارتدت على عقبيها لتتركه.. لكنها ستتذكر نظرات عينيه تلك حتى

يوم مماتها.. فاستبقاء هذه الذكرى كاستبقاء جوهرة ثمينة يجب أن نحرص عليها.

* * *

www.rewity.com

٥ ـ ليتك ترحل!

لا تموت العادات التي يكتسبها المرء بسهولة.. فقد استيقظت ساري في السادسة من الصباح التالي، وظلت في الفراش تنتظر أن يستخدم مارتن وروبي وبيت الحمام لتستخدمه هي.. ارتدت ثيابها وتوجهت إلى المطبخ حيث دغدغت أنفها رائحة البيض واللحم.. أزالت تحية مارتن العفوية كل حلم رومانسي من نفسها.. والتهت بتحضير سلتي الغداء للولدين، فهما يرحلان إلى المدرسة في باص أصفر كبير خاص، ولا يعودان إلا بعد الساعة الثالثة. كان الصغيران يهمان بالمغادرة عندما سمعوا نحيب طفل في الخارج.

سألت ساري بحدة وهي تقفل سحاب معطف بيت: من هذا؟

ركض روبي إلى النافذة:

ـ إنها سوزي.. لقد وقعت.

توجه مارتن إلى الباب الخلفي تلحق به ساري التي انتعلت حذاء عالي الكعبين.. لم يسبق أن رأى مارتن سوزي من قبل لكن شيئاً ما في تصرفه أبعد عن الطفلة خوفها من الغرباء. رأته يركع أمام الفتاة الصغيرة ثم يرفعها بين ذراعيه ويقول لها:

ـ ساري هنا.. سنغسل جرحك ونضع عليه لصوقاً.

لحقت ساري بهما إلى المطبخ مجدداً وهناك رأت سوزي تبتسم لبيت. قالت الصغيرة وهي تشهق: «لقد تعثرت».

لقد تمزق قماش بنطلونها القطني، فدفع مارتن القماش عن ركبتها

فانكشف جرح بشع متسخ بالوحل، عندئذ تجهم وجه سوزي وأخذت تئن باكية: إنها تؤلمني.

رد مارتن بلطف: «واثق أنها تؤلمك.. ساري، أحضري ماء دافئاً وقماشاً»..

سيطر مارتن على الموقف بحيث قامت ساري بما طلب بدون أي سؤال.. أحضرت المطهر وبعض اللصوق والضمادات.. ثم أبعدت الولدين:

ـ اذهبا.. سيفوتكما الباص.

ـ وسيفوت سوزي أيضاً.

ـ سنرجعها إلى المنزل لتغير بنطلونها وجوربها قبل الذهاب إلى المدرسة.. اسمعا.. وصل الباص.. اركضا!

ركض الصبيّان في الطريق الداخلية فانتظرت ساري حتى صعدا إلى الباص بأمان، ثم لوحت لهما كما يفعل جيرالد ولي آن. ثم عادت إلى المنزل فوجدت مارتن يتابع تنظيف الجرح بحذر شديد خشية أن يؤلم الفتاة. كانت بداء الكبيرتان بارعتين ولطيفتين.. ومع أن سوزي تراقبه عن كثب فإنها كانت تتحدث عن القطة الجديدة ذات الوجه الأبيض، وكان مارتن يطرح سؤالاً بين الحين والآخر لتمضي في الحديث. أخيراً استقام:

ـ أظن أنني أخرجت كل التراب من الجرح.. سنضع عليه مرهماً وضمادة بيضاء، ثم نأخذك إلى المنزل.

ـ حسناً.. إذن ستلتقي بالقطة تافي.

أنزل ساق البنطلون فوق ركبة الطفلة:

ـ هاك.. كل شيء على ما يرام.. فلنذهب لنقابل تافي.

ضحكت الطفلة فظهرت غمازتان على خديها ورفعت ذراعيها له ليحملها.

كان مارتن يمد ذراعيه إليها والابتسامة على وجهه.. ثم فجأة وكأنما

فيلم ما توقف في مقطع محدد، بحيث تجمدت الشخصيات في أوضاعها.. فجأة أصبح جامداً، يداه تحيطان بجسم الطفلة الهش، وجهه على بُعد إنشات عنها.. أما الابتسامة فتلاشت من عينيه وغمرتهما موجة عذاب أليم.. واشتدت عضلات عنقه بتوتر.

لا تعرف ساري ما الذي أعاده إلى وعيه؟ أهو أنين سوزي الخائف أم صيحة ساري المتسائلة: مارتن؟.. رأته يشهق ليتنفس وكأنه كان يختنق ثم ما لبث أن هزّ رأسه وكأنه يريد إبعاد كابوس ما.. وبجهد يفوق قدرة البشر، أظهر ما يمكن تشبيهه بابتسامة.

همس: آسف.. لقد ذكرتني.. بشخص ما.. جاهزة؟ فلنذهب!

كانت ساري تتمسك بظهر الكرسي بقوة وتوتر ولكنها أملت أن يبدو صوتها طبيعياً وهي تقول:

ـ سنأخذ سيارتي.

خرج الثلاثة من الباب الخلفي إلى الهواء الربيعي المنعش. لا تبعد أملاك لاتيمير إلا دقائق قليلة، حمل مارتن سوزي وقرعت ساري الباب ففتحته راشيل السمينة الصاخبة ذات اللسان الحاد والقلب الذهبي.. سارعت ساري تقول:

ـ كل شيء على ما يرام.. لقد جرحت ركبتها.. لا شيء خطير.

أنزل مارتن سوزي لتحملها راشيل التي قالت بحدة:

ـ طلبت منك ألف مرة عدم الركض إلى أي مكان سوزي! فالسير يوصلك كالركض تماماً. انظري إلى بنطلونك الجديد! لقد مزّقته سأجلب لك بنطلونك الأحمر.. أما الآن فالأفضل أن تتناولي بعض البسكويت والحليب.

سألتها ساري:

ـ أتريدين أن أقلّها إلى المدرسة راشيل؟ لن أذهب إلى العمل اليوم.. على فكرة، هذا جارنا الجديد مارتن ريفز وهو من ضمّد جرح سوزي.. مارتن هذه راشيل لاتيمير.

ـ شكراً لك سيد ريفز.. لا.. لا ساري، سآخذها الآن.

ـ هل أنت واثقة؟

ـ أجل.. لديه وقت، هل تبقيان لاحتساء فنجان شاي؟

تفضل مارتن على راشيل بإحدى ابتساماته النادرة التي لم تكن راشيل منيعة أمامها بمقدار ما كانت ساري منيعة.

ـ من الأفضل أن نعود، يجب أن ألتقي بجيرالد اليوم ويجب أن أسافر باكراً.. في وقت آخر.

نسيت سوزي ركبتها المتألمة فقفزت إلى الأرض لتخرج القطة البيضاء الوجه من وراء الطبّاخ.. أبدى مارتن إعجابه بها ثم غادر وساري..

قال لساري:

ـ لماذا لا تقلينني مباشرة إلى منزلي؟ يجب أن أغادر في أسرع وقت ممكن.

نفذت ما أراد وانطلقت إلى منزله مباشرة، المنزل مبني بأحجار من الآجر الرمادية النوافذ وكانت تظلل السقف الاردوازي الألواح أشجار حور طويلة وشجر قبقب.. ما بين الأشجار ظهرت نباتات النرجس التي توشك أن تزهر. تنهدت ساري عن غير وعي:

ـ إنه منزل جميل.. تشعر بأنه يرحّب بك بطريقة ما.

وكأنما لينكر كلماتها لم يدعها إلى الداخل.

ـ سأضطر إلى إيجاد من يعتني بالأرض.. لقد ذكرت أبناء أسرة لاتيمير... سمعتك تقولين مرة أنهم خمسة.

ألهذا كان ودوداً مع راشيل، لأنه يريد شيئاً منها؟ لكنه بهذا أعطاها الفرصة التي تريدها:

ـ مارتن.. ماذا حدث في المطبخ؟ بدوت للحظات رهيباً.

قال بحدة وهو يمد يده إلى مقبض الباب: لم يحدث شيء.

وضعت يدها على كمه.

ـ بل شعرت بشعور رهيب.
ـ دعي الأمر ساري.
أردفت بإصرار:
ـ لك ابنة ذكرتك بها سوزي.. أليس كذلك؟
انتزع ذراعه منها وعصف وجهه من فرط الغضب:
ـ الماضي مات ساري.. لا أريد منك أو من أي شخص آخر أن ينبشه ثانية.. أتفهمين؟
ـ هل ماتت؟
حدقت عيناه إليها بهدوء.. ثم قال بوضوح يخلو من أية عاطفة:
ـ ليس لدي فكرة إذا كانت حية أو ميتة.
ارتاعت مما قاله وراحت تراقبه بصمت وهو يترجل من السيارة صافقاً الباب وراءه.

ارتجفت وكادت الدموع تهطل من عينيها، يجب أن تغادر قبل أن تجهش بالبكاء كالأطفال. ارتدت حول حديقة الورود البيضاوية وهبطت المرجة مجدداً، ثم انطلقت على الطريق العام باتجاه منزل المزرعة.. أوقفت السيارة قرب المنزل وربتت رستي على رأسه ثم دخلت لتجلس إلى المائدة دافنة وجهها بين يديها.

بكت ربع ساعة كانت خلالها تفكر في أمر واحد: يجب أن تترك مارتن ريڤز وشأنه.. عليها أن تنسى وجوده بطريقة ما إذ لم تعد قادرة على تجاهل أوامره الصارمة لها بالابتعاد عنه.. ليست أحزانه بأحزانها ولا شأن لها بمشاكله الخاصة.. عليها أن تتجنب قناعتها المتعاظمة بأنه الرجل الذي كانت تنتظره طوال حياتها.

وقفت عن المائدة متململة وبدأت بترتيب المطبخ.. لكن حركاتها الآلية تركت تفكيرها فارغاً.. تعرف أنها فتاة عادية، كان عندها أبوان محبان وعاشت طفولة هنيئة وحياة عادية ليس فيها مشاكل كثيرة.

لكن مارتن ريڤز لم يعش مثلها حياة عادية.. فتجاربه وثقته بنفسه

وذكاؤه المخيف جزء لا يتجزأ من غموضه.. إنه مختلف عنها كل الاختلاف. إن سارعت إلى مواجهة هذه الحقيقة «إنه ليس لها» فستعود لتحيا حياة هانئة.

لاحظت أنها ما تزال تفرك القسم ذاته من رف المغسلة حتى بعدما أصبح نظيفاً.. عندئذ نهرت نفسها ونحّت مارتن عن تفكيرها وبدأت بالتخطيط لما ستفعله اليوم.. قد يعود جيرالد إلى العشاء، ولكن هل سيصحب مارتن معه؟ أوه.. تباً.. يجب أن تبذل جهداً أكبر لتنساه.. ستعدّ قالب حلوى التفاح وحلة طعام كبيرة من حساء السمك والبصل والبطاطا وهذه كلها أكلات جيرالد المفضلة.. فسيكون بلا شك مكتئباً بعد تركه للي آن، وستنظف له غرفته وتمرر المكنسة الكهربائية على سائر أنحاء المنزل وتلتقط بعض الزهور لتزين الردهة. عندما وصل الصبيّان كان المنزل نظيفاً ومرتباً وكانت الزهور تزين رف الموقد، فأطعمتهما وغسلت الصحون، ثم ارتدت تنورة مطبعة بالزهور وبلوزة مناسبة، وجلست تنتظر.. كانت الساعة التاسعة حين تناهى إلى مسمعها صوت إطارات سيارة، ثم وقع أقدام تصعد الدرج ومن ثم صياح الصغيرين: لقد عاد أبي!

لكن روبي كان أول من وصل إلى المطبخ وكان أول من رمى نفسه بين ذراعي أبيه الذي عانقهما معاً وهو يحاول الإجابة عن كل أسئلتهما، ثم أعطاهما رسالتين من أمهما. بعدئذٍ عانق ساري.

ـ علمت أنك كنت مريضة يوم السبت.. أعرفتِ أنك مريضة قبل أن أرحل؟

ابتسمت: «كيف تقول شيئاً كهذا؟»

ـ تعرفين أنني ما كنت لأذهب لو عرفتك مريضة.

ـ هذا صحيح.

هزها قليلاً: أنت عنيدة.. ميؤوس منك ساري، ما زلت متعبة.

غيّرت الموضوع خاصة وهي تشعر بقوة بوجود مارتن الذي يقف صامتاً.

ـ كيف حال لي آن؟

تهلل وجهه: أفضل مما كنت أتوقع. . رأيتها تسير عدة مرات في اليوم مستخدمة إحدى تلك الدعامات المعدنية، ولكنها على الأقل تسير. . لقد تحدثت مطولاً مع الطبيب الذي يظن أنها عائدة إلى البيت بعد ثلاثة أسابيع.

ـ ما أروع هذا. . أتمنى ذلك من كل قلبي.

ـ وأنا كذلك. . هل أشم رائحة حساء السمك؟ أكاد أموت جوعاً. . لم نتوقف لنأكل لأننا تأخرنا أكثر مما توقعنا. . اجلس مارتن.

ـ لن. .

قاطعه جيرالد بصوت حازم:

ـ بلى. . ستجلس. . أقل ما نفعله هو أن نطعمك بعد كل ما فعلته من أجلنا.

سارعت ساري تضع صحنين على المائدة وما لبث أن بدأ مارتن وجيرالد بتناول الحساء. وراح الولدان يصغيان بشغف وأبوهما يتحدث عن زيارته لأمهما. . غير أنه سارع إلى إرسالهما إلى الطابق العلوي للنوم قائلاً:

ـ نظفا أسنانكما. . سأصعد بعدكما مباشرة.

والتفت إلى مارتن: أريد قضاء بضع دقائق معهما قبل أن يناما. . أرسلت لهما لي آن رسالتين. . بإمكانك البقاء إن أردت مارتن. لكن إن غادرت قبل أن أنزل. .

مد له يده بوجه وقور:

ـ لقد عنت زيارتي الكثير لي وللي آن. . شكراً. . لا أعرف كيف أشكرك.

تصافح الرجلان ثم غادر جيرالد المطبخ، وانحنى مارتن ليأخذ سترته.

ـ شكراً على وجبة الطعام ساري.

توقعت أن يسارع إلى الخروج حالما يصعد جيرالد، ولكنه وقف يحمل سترته ونظر إليها وكأنه يتوقع منها أن تقول شيئاً.

قالت مترددة: «أكانت رحلتك موفّقة؟»

ـ كانت رائعة خالية من أي مشكلة. ولكننا تأخرنا هكذا لأنني ذهبت إلى المستشفى. . لم أرغب في السفر عائداً على الفور.

ـ أوه. . وهل قابلت لي آن؟

ـ أجل وكم أعجبتني. . إنها وجيرالد صورة عن الوفاء والحب. لم أرَ قطّ امرأة تضع ثقتها برجل كما تفعل لي آن.

بدأت ساري تلتقط الأطباق المتسخة وهي تفكر في أنها لا تريد أن تجادله أبداً. تجنبت النظر إليه وقالت لنفسها: «ليته يرحل».

سأل: «أتستطيعين أنت هذا؟»

قالت بعدم اهتمام مقصود:

ـ أعتقد أنني أستطيع إذا كنت أحب الشخص الذي سأثق به.

ثم فتحت حنفية الماء لتجلي الصحون وكانت تريد بهذه الحركة أن يفهم رغبتها في رحيله.

ـ لماذا لا أساعدك في هذا؟ جيرالد على حق ما زلت متعبة.

ـ أستطيع تدبر أمري. . شكراً لك.

ـ هذا ما أنا واثق منه. . ولكن المسألة ليست هكذا.

في صوته رنّة غريبة.

قالت بحدة: «المسألة أنني أحب القيام بالعمل وحدي».

وكأنها لم تتكلم إذ وضع سترته مكانها والتقط منشفة صحون وأردف يتحدث ببطء:

ـ إنهما متحابان فعلاً. . أليس كذلك؟ حينما سافرنا صباح السبت بدا جيرالد كطفل في طريقه إلى حفلة عيد. . أما اليوم فخرج من المستشفى وكأنه مبتور الأطراف. . وطوال طريق العودة واصل التدخين بصمت. . ماذا لو أصاب أحدهما شيء ساري؟ لن يعيش الآخر.

غمست يديها في الماء والصابون لتبدأ غسيل الصحون بحيوية محمومة: أنت مخطىء.

- وكيف أكون مخطئاً؟

جمدت يداها وهي ترتد لتواجهه.

- اسمع مارتن.. ليتك تذهب إلى بيتك وتبقى فيه بعيداً عن حياتي.. هذا الصباح لم تكن قادراً على الانتظار لتتخلص مني.. وها أنت الآن لا تريد أن تدعني وشأني.. فكيف يفترض بي أن أعرف ماذا أقول أو أفعل؟ أنت تغيّر القواعد.

- هذا الصباح.. كنت متكدراً.

- إذن.. لديك مشاعر.

- تعرفين هذا خير معرفة!

كان الخطر يغلف صوته.. ولكنها قالت بتهور:

- إذن تصرف حسب مشاعرك!

- خضعت لمشاعري مرة فكانت كارثة رهيبة، ولم أستطع قط التهرب منها.

- أتعني.. زواجك؟

- نعم عدا أمور أخرى. والآن ردي على سؤالي.. ماذا سيحدث لو مات جيرالد أو لي آن؟

- سيتمكن الحي منهما من العيش بطريقة ما.. وقد يفعل أكثر من هذا.. مع الوقت سيقنع بكل ما تشاركاه ويسعد به.

ترددت لأنها تعرف أنها تصف ما تشعر به في أعماقها.

- في الحياة مخاطرة دائمة.. ولا ضمانات أبداً.. فهل يتوقف الناس عن الحب خشية أن يصاب أحد الحبيبين بضرر.. ما هكذا هي الحياة.. فقد تكون أنت ميتاً الآن.

- وهل تؤمنين أن الزواج يدوم؟

- طبعاً يدوم، ولكنه لا يدوم هكذا بدون تضحيات.. فعلى الشريكين

أن يعطيا الكثير من نفسيهما.. حينما ترى زوجين مثل جيرالد ولي آن تدرك أن للتضحية معنى.. فما بينهما قوي راسخ.

قال بلطف:

- أرجو ألا يخيب ظنك أبداً.. ساري.

نظرت إليه بعينين خضراوين مضطربتين: «كما حدث معك؟»

- في يوم ما قد أخبرك بكل شيء.

في هذه اللحظة أحست بالتواصل يمر في كل عصب من جسمها، وبشكل لا إرادي التفتت إليه قائلة:

- وهل سبق أن أخبرت أحداً؟

- أبداً.

طافت عيناه على وجهها ثم قال بصوت أجش:

- تبدين صادقة حقيقية ساري.. حقيقية، هكذا بدت هي أيضاً.

- وما اسمها؟

- كارولين. كانت أجمل امرأة رأيتها.

سرت فيها وخزة غيرة ففي صوته لهجة لم يسبق أن سمعتها.. فجأة كرهت هذا الحديث وابتعدت عنه، فوقعت يده إلى جنبه.. ثم ارتدت ورأسها محني، وقالت هامسة:

- ماذا تريد مني مارتن؟

- أتمنى أن أعرف ساري.. من ناحية أنا منجذب إليك.. يا إلهي ما أشدّ انجذابي إليك! ومن ناحية أخرى أسمع صوتاً في داخلي يحذرني قائلاً: تورطت مرة فلا تتورط مرة أخرى. عندما أكون على مقربة منك كحالي الآن أعجز عن سماع ذلك الصوت.

عرفت أن ما عليها سوى أن تدير رأسها لتواجهه. وهي التي لم تخف من رجل، كانت خائفة أن تستدير.. قد يحمل إليها مارتن سعادة لم تحلم بها.. ولكن قد يجعلها تعاني بشكل رهيب.. ولأنها لم تتعلم قط المراوغة، قالت:

ـ أنا خائفة منك.

قال بجفاء: «إنها حكمة منك».

عرفت أن تقاربهما القصير قد انتهى.

حينما نزل جيرالد إلى المطبخ وجده نظيفاً مرتباً ولكنه لم يجد مارتن.

قال جيرالد باهتمام:

ـ الأفضل أن تذهبي إلى النوم أختاه، تبدين مرهقة.

ـ أعتقد أنني مرهقة.

ـ متى دوامك غداً؟

ـ يبدأ من الثالثة حتى الحادية عشرة طوال الأسبوع.. لذا سأنام في الشقة، ولكنني سآتي مرتين صباحاً لأخبز ولأنظف.

ـ حسناً إنما لا ترهقي نفسك.. هيا اذهبي لتنامي.. أما غداً فسأشرف بنفسي على رحيل الولدين إلى مدرستهما فإياك أن تنهضي. وهذه أوامر!

جيرالد يقدّرها حق قدرها والولدان يحبانها.. أما مارتن.. فعلاقتها به كرمال الشاطىء متغيرة دائماً.

كبيت مبني على الرمال..

* * *

٦ ـ لماذا أنت؟

انصرم شهر أيار وحلّ حزيران.. كانت الشمس تبعث الدفء وأزهرت براعم الأشجار.. في المزرعة راحت الأبقار ترعى في الحقول مستلذة بالعشب الأخضر الطازج.. أمضت ساري ثلاثة صباحات ذلك الأسبوع في المزرعة، فهي لا تستطيع مقاومة زهر التفاح. ولكنها لم تشعر بهذا السحر كما كان يحدث سابقاً فعندما تكون في المزرعة تشعر بقرب مارتن وببعده في آن معاً.. ولم تره طوال الأسبوع.. وكأنه كان يعرف متى تكون هناك ويتعمد الابتعاد.

بعد ظهر الخميس وفيما كانت في عملها وصل جواد، «سلطان» الذي أدخل إلى مربط قرب «زهرة الصباح» وفي أول فرصة سانحة ذهبت ساري لتتفحصه. وكما توقعت، كان مخلوقاً عظيماً متكبراً، ذا لون أسود أطول من الزهرة بشبرين.

يوم السبت تغيّر دوامها إلى الدوام الصباحي. في المساء وافقت على الخروج مع ريكي الذي لم تكن تراه كثيراً مؤخراً، فقد كان يقضي صبيحة أيامه في المستشفى وبعد الظهر في عيادته الخاصة.

ذهبا لمشاهدة فيلم نال جائزتين، ولكنها وجدت أنه نالهما عن طريق الخطأ. في الطريق إلى المطعم أخذا يناقشان أمر الفيلم، وفيما كانا ينتظران العشاء سألها ريكي: «ماذا فعلت مؤخراً ساري؟ لا أراك في عافية فما زالت عليك آثار الانفلونزا التي أصبت بها الأسبوع الماضي».

أحست بالتوتر.. لقد سئمت من القول لها إنها تبدو متعبة:

ـ لا شيء.. حقاً. الروتين القديم ذاته.
ـ ما بك؟
أحست بالخجل من نفسها فصبت اهتمامها عليه.
ـ لا أدري ريكي.. ربما هي حمى الربيع. فهل لديك العلاج لهذا؟
ابتسم: لا وجود للترياق في كتب الطب.. سأكون سعيداً بعودة لي آن إلى منزلها، لأنك عندئذ ستستفيدين من أوقات فراغك حبيبتي.
لم تكن المرة الأولى التي يقول فيها «حبيبتي».
قالت: ليس الأمر هكذا ريكي.. فأنا سعيدة لأنني أقدّم يد المساعدة.
ـ ما الأمر إذن؟ لقد ذكرت الجار الجديد مرة أو مرتين.. مارتن، هل هذا اسمه؟ فهل لحالتك علاقة به؟
غضت طرفها لتخفي عنه تعابير عينيها. تمتمت: «ولماذا تسأل هذا؟»
ـ لأنك لست نفسك ساري.
في صوته حدة غير عادية.
رفعت عينيها إليه.. إنهما صديقان منذ زمن طويل وهو يستحق منها الحقيقة:
ـ أنت على حق، للأمر علاقة به. لقد تغير كل شيء في حياتي منذ وصوله، ولكن إن سألتني عن السبب فلن أعرف ما إذا كنت قادرة على الرد.. أنا لا أحبه.. وكيف أستطيع أن أحبه وهو لا يحبني؟.. لكنه يثير اضطرابي.. إنه مختلف ويجعلني أشعر بأنني مختلفة.
وصل الساقي حاملاً المقبلات، فصمتت حتى ذهب.
ـ أعرف أن الأمر لا يبدو منطقياً لي أو لك ولكن هذا كل ما أستطيع قوله لك.
ـ هكذا إذن.. خشيت هذا.
تخلت عن أي ادعاء بالاهتمام بوجبتها: خشيت؟
ـ ألا يمكن أن تشعري بشيء ما نحوي ساري؟

ـ آه.. ريكي..
حاول الابتسام مقاطعاً:
ـ أرى على وجهك أن لا مجال إلى ذلك.. لا تقلقي كان يجب أن أقول لك شيئاً منذ شهر أو أكثر، لكنني ظننتك بحاجة إلى وقت أطول ثم تسارعت الأعمال في المستشفى..
أضاف في إحدى لمحات مرحه النادرة:
ـ إنه عذر كل طبيب..
ـ أتعني..؟
ـ أردت أن أطلب يدك للزواج.
ـ هذا لطف كبير منك ريكي.. حقاً! لكنني لا أستطيع.. لا أعرف ماذا أقول ولكنني لا أحبك إنما لا شأن لذلك بمارتن.
ـ أتظنين أن شيئاً قد يتغير؟
ـ لا.. لا أظن هذا.
ـ هكذا الأمر إذن.
ـ أنا آسفة.
ابتسم شبه ابتسامة:
ـ ليست غلطتك..
تابعا تناول الطعام ثم شرع ريكي بتغيير الموضوع ومع ذلك باءت السهرة بالفشل.
قاد ريكي ساري مباشرة إلى شقتها. قال: فلنلتقِ دائماً لنشرب فنجان قهوة أو لنذهب إلى السينما ساري.. على أي حال، سنرى بعضنا كل يوم في المستشفى.
آخر ما تريده هو أن يكون أي منهما عرضة لشائعات في المستشفى.. عرفت أن اقتراحه منطقي.
ـ أجل.. أنت صديق طيب ريكي.
ـ أجل.. هذا شيء مميز على أي حال.. تصبحين علي خير ساري.

ـ تصبح على خير.

دخلت إلى شقتها وأقفلت الباب وراءها مسرورة بوحدتها فلم تشعر براحة كبيرة بسبب ما جرى. . فقد جُرحت مشاعر ريكي.

خلعت ملابسها ببطء وأوت إلى الفراش، تحاول نسيان هذه الأمسية. ولتنسى راحت تفكر في المزرعة وقررت أن تمتطي غداً زهرة الصباح لتقطف باقات من النرجس. . ربما تتمكن من رؤية مارتن.

لكنها لم تره. . سارعت تنجز مهماتها المنزلية لأنها متأكدة أن مارتن سيرغب في امتطاء سلطان بعد ظهر هذا اليوم الرائع. . ربما يخرجان معاً. . لكن ما إن حلت الساعة الرابعة حتى عجزت عن الانتظار. . فاستدعت الزهرة من الحقل حيث كانت ترعى برفقة سلطان وأسرجتها وامتطتها وراحت تعدو بها في الغابة التي تملكها عائلة لاتيمير حتى وصلت إلى الشاطىء الشرقي، شمالاً كان الشاطىء الذي يملكه مارتن. . منذ خمسة أسابيع، كانت ترمي العصا لرستي. بدا لها ما حدث وكأنه حدث بالأمس. . كان الهواء نظيفاً منعشاً. . ما إن بلغت الشاطىء المنحني الطويل حتى حثت الزهرة على العدو السريع.

في نهاية الشاطىء جزيرة لا يمكن الوصول إليها إلا عندما ينخفض المد، فحولها تيارات خطيرة. . اليوم كان المد مرتفعاً وبدت المياه تدور وترتفع والموج يتلاطم. شدت ساري لجام الفرس وهي تفكر في أن هذه الجزيرة أثارت اهتمامها منذ زمن بعيد بعيد. . اليوم، يجب أن تقنع نفسها بالنظر إليها فقط، فالمياه عميقة لذا من المخاطرة عبور القناة. . وغيّرت وجهة الفرس بأسى.

ربما أملت في عقلها الباطني أن تلقى مارتن، ولكنها لم ترَ له أثراً. . وعندما وصلت البيت وجدت سلطان يقضم العشب في المرعى. . ربطت فرسها ثم توجهت إلى الحمام لتستحم وبعد ذلك أرسلت روبي لاستدعاء جيرالد من الحقل حيث كان يزرع البذور.

قال جيرالد منتقداً: استريحي أختاه. . فلديك فرصة غداً. لست

مضطرة للقيام بكافة الأعمال المنزلية اليوم.

ـ لا أشعر برغبة في الراحة. . أنا متململة كقطة على صفيح ساخن.

نظر إليها بحب ممزوج بالمكر:

ـ إذن. . تنزهي. . إنها أمسية جميلة، والقمر بدر.

ترددت: «قد أخرج. . آسفة جيرالد. . لست اليوم رفيقة مسلية. . لقد طلب مني ريكي الزواج به ليلة أمس».

ـ هكذا إذن. . وأعتقد أنك رفضت.

ـ أجل. . إنه لطيف، وأنا معجبة به، ولكنني لا أحبه.

ـ في الواقع لم أؤمن أنه الرجل الذي يناسبك.

ـ حقاً؟ لم أعرف هذا.

ـ علمت أنك ستتوصلين إلى هذا القرار عاجلاً أم آجلاً.

عرفت أنها لو ظلت لانتهى الأمر بها أن تفضي له بكل شيء عن مارتن. . ولسبب ما خافت من هذا، فمنحته ابتسامة زائفة.

ـ سأعتمد نصيحتك. . فلا تنتظر عودتي.

هرعت إلى الطابق العلوي لترتدي بنطلوناً أسود وكنزة مرتفعة الياقة سوداء كذلك، فما زال الليل بارداً. . اعتمرت قبعة بحرية وانتعلت حذاءً رياضياً ثم انطلقت صعوداً إلى مخزن الغلال. . أحست أنها أفضل حالاً في الخارج فظلال الليل القاتمة تناسب مزاجها أكثر من المطبخ الحميم الدافىء. ثم اتجهت إلى البستان بطريقة لا إرادية.

لم يكن الظلام قد حل نهائياً. . فالزهور أصبحت رمادية اللون. . أما النجوم فبدت بعيدة، باردة. . حثت ساري الخطى ويداها في جيبي سترتها الواقية من الريح. . ما إن وصلت إلى حقل الشعير حتى كان البدر قد ارتفع فوق رؤوس الأشجار ملقياً ضوءه على الغابة. . غابة مارتن. . تباً له، في كل الأحوال. . تعرف هذه الغابة كما تعرف يدها، فكم لعبت فيها وكم تسلقت أشجارها. . فلماذا تبقى بعيدة عنها الآن؟ ألأنه طردها مرة؟

بدل التوجه إلى الشاطىء شقت طريقها صعوداً إلى التل باتجاه

المنزل. . هناك مجاز ضيق في الغابة، سلكته حتى بدأت الأشجار تقل عدداً. . رأت من بين الأغصان بريقاً أصفر ينبعث من المنزل. . تمنت لو تملك الشجاعة لتسير إليه وتقرع بابه، لكنها تعرف أنها لن تقوم بهذا. . رفعت ياقتها فوق عنقها بسبب البرد وبدأت تقترب محاولة أن تظهر أكبر هدوء ممكن.

راح القمر يلقي نوره على الدنيا وبدأ بوم يصيح ومن ورائها، ردّ بوم آخر. تحركت ساري بين الأشجار، ولكنها لم تلمح طيفاً أسود يتسلل ويتخفى في عتمة الليل.

لم تشعر بأنها لم تعد بمفردها في الغابة. كانت تخرج من بين مجموعة أشجار محنية الرأس متجنبة الارتطام بالأغصان، حين أمسكت بها ذراع. . اختل توازنها وارتمت على جذع شجرة، ثم شعرت بيد توضع على خناقها تمنع صيحتها.

وقعت قبعتها أرضاً وألقى القمر نوره على وجهها الذي اتسعت فيهما عيناها ذعراً ثم سحبت نفساً عميقاً متقطعاً لأن اليد التي أطبقت على خناقها خف ضغطها.

صاح مارتن: «ساري؟ ماذا تفعلين هنا؟»

أبعدت نفسها عن الشجرة وراحت تدلك ظهرها وهي عاجزة عن التفوه بكلمة. كان قلبها يتسارع وكأنها ركضت ميلاً. . إنه على مقربة شديدة منها، وما إن تكلم ثانية حتى عرفت أنه مصدوم مثلها.

ـ يا إلهي! هل أنت بخير؟

هزت رأسها إيجاباً، فأردف:

ـ أيتها الحمقاء الصغيرة. . كدت أؤذيك فعلاً! كنت أقف على الشرفة الخلفية عندما رأيتك قادمة، خلتك لصاً. . وهذا ما يتعلمه المرء في المدينة، فكرت أن أنال منك قبل أن تنالي مني.

وضعت أصابعها على عنقها مرتجفة، وقالت بصوت مخنوق: ولقد فعلت.

في مكان بعيد من الغابة نعق بوم لكن أحداً منهما لم يسمعه. فما إن تلاقت عيونهما حتى ضاعا في لجة مشاعرهما، وراحت تنظر إليه بشغف حتى عجزت عن رؤية أي شيء سواه.

أدركت بذهول أنها هنا في المكان الذي تريد أن تكون فيه. . وكأنما قرأ أفكارها فقال بصوت أجش:

ـ لقد سحرتني منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها.

كادت تظن أنها توشك أن يغمى عليها من السعادة.

همست: «مارتن. . لم يؤثر بي قطُّ رجل بهذه الطريقة ولم أشعر يوماً بشيء كهذا».

وأكملت:

ـ لماذا؟ لماذا يجب أن تكون أنت من يدفع الدم حاراً في شرايني؟

هز رأسه:

ـ لماذا أنت من تزعزعين كل الوعود التي قطعتها عن قواعدها؟ لا أدري ساري. . ليس لدي جواب. . كل ما أعرفه أنني لم أعد أريد المقاومة.

نعقت البوم من بين الأشجار مجدداً. . فتردد نعيبها وسط الطبيعة الصامتة. ثم، من مكان قريب، سمعا خفقات جناح ثقيلة وصياح حيوان علق بين مخالب طير. . ارتجفت ساري، فقد قال لها عقلها إن هذا كله جزء من طبيعة الأشياء. . رأت أحاسيسها في الموت الليلي السريع نذير شؤم.

قال مارتن بلهجة طبيعية:

ـ أنت ترتجفين برداً. . فلندخل لأعد لك شراباً ساخناً.

ـ سيكون هذا رائعاً.

سار إلى باب المنزل الخلفي. . لم تكن أبواب الشرفة الخلفية موصدة ففتحها. . لم تدخل ساري إلى المنزل منذ الصيف الماضي حين كانت أسرة بارنستيد قاطنة هنا. . كان كل ما فيه بسيطاً غالي الثمن، وجيداً.

الألوان متناسقة، تأثيرها مريح.. إنه بلا شك منزل رجل.

قالت: يجب أن تضع مزهرية زهور النرجس البري على تلك الطاولة.. ستبدو جميلة أمام الألواح الخشبية التي تكسو الجدران.

قال ساخراً: «لمسة امرأة».

تورد وجهها، فتقدمت لتركع أمام المدفأة كيلا تنظر إليه.. رمى حطبة أخرى وقال: «ماذا تشربين؟»

ـ شاي مع الحليب.. فذوقي سوقي.

ضحك: سأعود حالاً.

في غيبته حدقت إلى قلب ألسنة النار، ففي نصف ساعة تغيرت حياتها تغييراً جذرياً.. لم تعد تلك الفتاة الخالية القلب القانعة بحياتها. إنها تحبه وتريده.. تريد الرجل كله، أفكاره ومشاعره، ضحكته وحزنه، ماضيه وحاضره ومستقبله.

ـ فيم تفكرين؟

انتفضت لأنها لم تشعر به عندما عاد.. جلس على السجادة قربها مادّاً يده بالكوب:

ـ اشربي.

رفعت الكوب إلى شفتيها، وابتلعت رشفة. فتابع:

ـ لم تردي على سؤالي.

نظرت إليه مباشرة: «لا أعرف كيف أرد.. ولعل الوقت قد حان لترد على بعض الأسئلة مارتن.. على أي حال لا أعرف شيئاً عنك».

ـ أستطيع قول الشيء عينه عنك.

إنه يراوغها لتبقى بعيدة عنه.. وقالت بنفاد صبر:

ـ ليس لديّ الكثير.. حياتي عادية. كان لي أبوان محبان وكانت طفولتي سعيدة وفترة مراهقتي غير غنية بالأخبار. مواعيد عابرة وحفلات رقص، وعمل.. ماذا هناك بعد؟ لكنني لا أظن أن الأمور كانت بسيطة هكذا بالنسبة لك.. أولاً..

نظرت إلى الترف الذي حولها وأردفت كمن تتهمه بجريمة: «أنت ثري!»

ـ ورثت ثرائي ساري.. فهل يحسّن هذا موقفي؟

ـ لا أظنك معتاداً على الحديث عن نفسك.. أليس كذلك؟ ألم تجد يوماً شخصاً يصغي إليك؟

نظر باكتئاب إلى النار: لا أظنني وجدته يوماً. كان والدي دائم الانشغال بجمع المال وأمي في إنفاقه.. وكنت طفلهما الوحيد.. تقلبت بين سلسلة من المدارس الخاصة، لأننا كنا ننتقل دوماً.. وهكذا ما إن أبدأ بعقد صداقات حتى يحين موعد الرحيل.. والانتقال إلى مكان آخر لاكتساب مليون آخر.. وما إن أصبحت مراهقاً، حتى كنت وحيداً غريباً، ولا أظنك كنت يوماً وحيدة، غريبة ساري.

ـ أعتقد أنني لم أكن هكذا.. كنت عادة في قلب كل حدث.. لكنك تعلمت منذ ذاك الحين كيف تفقد الأصدقاء.

ـ أجل.. ولكن إن كنت تريدين فهم زواجي يجب أن تعرفي كيف كنت أنا يومذاك.. أراد والدي أن أكون محامياً لأساعده في كل الأمور القانونية وغير القانونية التي تجري خلف الستارة. بدأت بالدراسة في معهد الحقوق، فكرهت هذا الاختصاص واتجهت للعمل كميكانيكي في كاراج لا يتعامل سوى مع سيارات السباق.. فطالما أحببت معالجة المولدات.. ذهبت لأرى والدي وحاولت التفاهم معه وأخبرته برغبتي في أن أكون مهندساً ميكانيكياً.. لكن، وكما هو متوقع، لم أنجح معه.. ثار غضبه وهدد بحرماني من وصيته.. وغضبت أمي أيضاً لأن ابنها الوحيد يعمل في كاراج.. فماذا سيقول أصدقاؤها؟ بعد أسبوع على هذه الحادثة أصيب والدي بنوبة قلبية قاتلة.. ولم تتوان أمي عن لومي على هذا، قائلة إن الضغط الذي سببته له هو السبب في موته.. وكنت صغيراً وساذجاً فصدقت اتّهامها. بعد سنتين على وفاة والدي أخبرني طبيبه أنه قبل موته بأربع أو خمس سنوات، كان مرشحاً للتعرض لنوبات قلبية وأنه رفض

تغيير نظام حياته.

- قصة حياتك رهيبة مارتن.. وأنا آسفة.

نظر إلى الأصابع النحيلة التي تمسك بالكوب وما لبث أن رفع رأسه فتلاقت عيناه الرماديتان بعينيها الخضراوين. ثم قال بحذر شديد:

- من الأفضل ألا أقترب منك مجدداً، وإلا لن أكون مسؤولاً عن النتائج.. لماذا لا أضع بعض الموسيقى؟

هبّ واقفاً إلى حيث يضع شرائط مسجلة وأسطوانات.. بعد قليل تسللت إلى الغرفة موسيقى كلاسيكية حزينة، فوقفت ساري تلقم الموقد مزيداً من الحطب ثم أخذت تراقب اللهب البرتقالي يتصاعد نحو المدخنة. ليت الزمن يتركها في هذا النعيم إلى الأبد!

تحركت حطبة مشتعلة في الموقد فأرسلت رذاذاً من الشرر نحو المدفئة.. فكان أن انتهت اللحظة السحرية.. انحنت ساري تلتقط كوبها وقالت بعفوية زائفة لم تخدع أياً منهما:

- أما زالت أمك على قيد الحياة؟

- أجل.. بعد وفاة والدي بسنة تزوجت مرة أخرى، وانتقلت للسكن في كاليفورنيا مع زوجها.. وهي هناك منذ ذلك الوقت. في كل عيد ميلاد نرسل لبعضنا بعضاً بطاقة معايدة فاخرة ولكن لا اتصال يُذكر بيننا عدا هذا. هي تعيش حياتها وأنا أعيش حياتي.

استندت ساري إلى حافة المدفئة:

- وماذا تعمل في الوقت الحالي؟ ذكرت عملاً تريد أنهاءه؟

- بدأت بدراسة الهندسة، ثم اكتشفت أنني أحب علم الفيزياء فالتحقت بالجامعة لأنال شهادة ماجستير. بعد ذلك عملت سنوات في حقل الفيزياء النووية حتى تحررت من وهمها، وها أنا اليوم أعمل على تأليف كتاب في هذا الحقل. سأكون محاضراً متعاقداً في الجامعة هنا.. وهذا سيمتعني كثيراً لأنه تغيير حقيقي.. ها أنت تعرفين كل شيء عني.

فكرت في سرّها: أعرف بعض الأشياء لا كل الأشياء، وناحية واحدة من الشخصية: الشاب الوحيد الأسود الشعر الذي يخوض وحيداً طريقه المنعزل. لكن ماذا عن باقي النواحي في شخصيته؟ ماذا عن الجميلة كارولين؟ ماذا عن طفل ذلك الزواج؟

كان يحدق إلى النار التي لوّن نورها القسمات المحفورة بقوة على وجهه وعينيه العميقتين المظللتين. وتساءلت عما إذا كانت تريد فعلاً معرفة تتمة فصول القصة.. لقد أحب كارولين وهي متأكدة من هذا.. لكن ما تخشاه أن يكون على حبها باقياً وهذا ما تخشى سماعه.

قالت: يجب أن أتصل بجيرالد لأخبره أين أنا.. لقد خرجت أتمشى وأخشى أن يظنني قد ضعت.

- هناك هاتف في الردهة، أتعرفين الطريق؟

هزت رأسها وغادرت الغرفة.. عندما طلبت الرقم رن الهاتف مرة واحدة قبل أن يلتقط السماعة:

- آلو؟

- أنا ساري.. أردت أن تعرف أنني مررت بمارتن..

- ساري! كنت أسأل عنك. أتستطيعين العودة إلى المنزل أختاه؟ اتصل آلان وهو بحاجة إلى عون لأن لديه بقرة تلد، ولكنني لا أريد ترك الولدين بمفردهما.

شعرت بالراحة: أستطيع العودة بالتأكيد.

- اصطحبي مارتن! هل تدعينه؟

تجنبت الرد: سأعود بعد بضع دقائق.. وداعاً.

عادت إلى غرفة الجلوس وقالت بسرعة:

- مارتن، يجب أن أذهب.. جيرالد مضطر للخروج وهذا يعني أن الولدين سيبقيان بمفردهما.

- سأقلك.

- لا داعي.. يمكنني العودة عبر الغابة.

ـ لا تعجبني فكرة تجوالك بمفردك في الظلام.
ـ هذا الريف لا المدينة!
أخرج مفاتيح سيارته من جيبه.
ـ ما أكثر ما تجادلين.. تعالي.
ما هي إلا دقائق حتى أوقف السيارة أمام منزل جيرالد. قالت له مترددة بعدما عاد رجلاً غريباً بدلاً من الرجل الذي فتح لها قلبه منذ وقت قصير:
ـ ألن تدخل؟
ـ لا.. لكنني أريد أن أراك ثانية غداً.. سأزورك غداً.
ـ اتفقنا.
ـ أراك غداً إذن.
ـ تريد حقاً أن تراني وليس السبب مجرد أدب؟
لانت قسمات وجهه:
ـ لا علاقة لما أشعر بالتأدب.. أجل أريد رؤيتك.. والآن، اذهبي.
وجدت نفسها تقف في الخارج تراقب السيارة تبتعد، ثم انضم جيرالد إليها.. كان تفكيره في مساعدة آلان يستحوذ على تفكيره أكثر من لقائها بمارتن.
ـ لا تنتظريني.. فقد أتأخر.. شكراً أختاه.
عندما أصبحت في غرفتها ارتدت مبتعدة عن صورتها الحالمة في المرآة. غداً ستغيّر شراشف الأسرة وتغسلها، تفرك أرض المطبخ وتنظف الطابق العلوي.. غداً سترى مارتن مجدداً.. ولكنها لن ترتدي البنطلون أو الجينز الذي يراها فيهما دائماً بل سترتدي ثوباً جميلاً.. وما أروع أن تتزين من أجله.
ولكن الأمور لم تجر كما خططت لها. كانت الشراشف تنتفخ كالأشرعة، ونصف دزينة من الأرغفة تنتفخ في الفرن، عندما سمعت قرعاً على الباب الخلفي. «ادخل!» بدون التوقف عما كانت تفعل.. كان دلو

الماء إلى يمينها وهي جاثية على ركبتيها تدعك الأرض بالليف المعدني بقوة دفعت اللون الزهري إلى خديها.
ـ ألا تجلسين أبداً بدون أن تفعلي شيئاً؟
توقعت أن يكون القادم آلان أو راشيل. دفعت خصلة شعر إلى الوراء متمتمة:
ـ آه! مارتن مرحباً.
ووقفت..
لا بد أن أفكارها ظهرت على وجهها، وكانت ضحكته ناقلة للعدوى فوجدت نفسها تنضم إليه، وقالت:
ـ تباً لك.. كنت أخطط أن أبدو منالقة حين أراك. أنظر إلي الآن!
ـ وأنا أردت أن أدعو نفسي إلى فنجان قهوة.
ونظر إلى إبريق القهوة الذي يفصله عنه وعن ساري أرض مبللة:
ـ في يوم آخر.. ولكن ارتدي شيئاً جميلاً الليلة ساري.. ربما نذهب إلى المدينة لنسهر.
ـ حسناً! سيكون هذا رائعاً.
حياها ساخراً بقبعته: «أراك في ما بعد».
وجدت نفسها تغني وهي تقوم بعملها.. بعد العشاء مباشرة أخرجها جيرالد من المطبخ.
ـ اذهبي واستعدي.. لقد قمت بعمل عشر نساء اليوم وتستحقين سهرة رائعة.
قالت: «حسناً، ساخرج».
ـ هكذا تهب الرياح إذن؟
تورد وجهها:
ـ لا! حسناً.. ربما.. لا أدري.
عندما نزلت بعد ساعة إلى الطابق السفلي صفّر لها جيرالد بإعجاب:
ـ ليس لديه أمل يا أختاه! أنت رائعة!

سألت بلهفة: «هل أبدو جميلة حقاً؟»

رد بحزم: «بل تبدين مذهلة، استمتعي بوقتك».

رمت ساري معطف الموهير على كتفيها وركضت إلى السيارة.. حين توقفت قرب مسكبة الورود أمام منزل مارتن وجدته يترقب قدومها.. فقد سارع إلى الخروج.. ترجلت من السيارة وتوجهت إليه.

ـ مرحباً ساري.

ـ مرحباً.

عندما فتح لها باب المرسيدس تساءلت عما كانت تتوقعه.

حينما توجها إلى المدينة، تحدثا عن أشياء عادية.. عن زهرة الصباح وعن سلطان وعن وظيفة ساري، وعن المحاضرات التي سيلقيها مارتن على طلابه في السنة المقبلة.. استمتعت ساري بحديثه ومع ذلك وجدت نفسها متوترة.. لو كانت مرتدية السروال الجينز لشعرت براحة أكبر.. أوقف السيارة في شارع جانبي، وسارا إلى وسط المدينة، حيث تفرجا على واجهات المحلات قليلاً، وهناك اكتشفا أن لديهما ذوقاً مشتركاً في عدد من الأشياء.. ثم دخلا إلى مقهى أحد المطاعم.. عندما تمكنت من الإشارة إلى زوجته بلباقة ولكنه باللباقة ذاتها تجاوز الموضوع رافضاً الانجرار.

أنهى مارتن شرابه وقال:

ـ ربما يجب أن نعود إلى القرية أم تريدين البقاء في البلدة في شقتك بسبب عملك الباكر صباح الغد؟

وردت:

ـ إنّه حل منطقي على ما أعتقد.. سأضطر للاتصال بجيرالد لئلا يقلق.. لكن.. لا لن أستطيع.. فسيارتي أمام منزلك.

ـ سآتي غداً عند انتهاء دوامك وأقلّك بنفسي.

ـ لا يمكن أن أتوقع منك هذا مارتن.

ـ أفضل هذا على استيقاظك باكراً للمجيء إلى هنا.. فأنت تعملين

كثيراً ساري.

رفعت رأسها إليه بحيرة: لماذا يهمه الجهد الذي تبذله في العمل؟

ـ ماذا أقول لك.. لماذا لا تأتي إلى شقتي لنشرب فنجان قهوة ثم نقرر؟.. شقتي لا تبعد كثيراً عن المكان الذي ركنت فيه سيارتك.

توجها معاً إلى المبنى السكني الآجريّ، وفتحت ساري الباب وقالت بلهجة اعتذار:

ـ لم أكن في الشقة مؤخراً.. ستكون مغبرة.

لكن الشقة كانت نظيفة. أثاثها غير الفاخر مرتب على أفضل حال، تزينه وسائد متعددة الألوان ونباتات جذابة. ربما لأنها أصبحت في منطقة نفوذها الخاصة، بدأت تسترخي.. ودخل كلاهما إلى المطبخ الصغير يحضران القهوة.. وابتسم مارتن لمجموعة الصور الكاريكاتورية التي تزيّن البراد.. ثم رن جرس الهاتف في غرفة النوم.. فعبست:

ـ اعذرني للحظات.

عندما عادت إلى المطبخ بعد دقيقة كان وجهها منجهماً:

ـ أنا آسفة مارتن.. يجب أن أذهب.. الاتصال كان من المستشفى.. اتصلوا بي في المزرعة وقال لهم جيرالد إنني في المدينة.. فاتصلوا بي إلى هنا صدفة.. وقع حادث سير على طريق «ترانس كندا» كان ضحيته خمس سيارات وهم الآن بحاجة إلى جميع الموظفين.

قال بهدوء: اذهبي وغيري ملابسك.. سأوصلك إلى هناك.

ـ حقاً؟ شكراً لك.

في غرفتها خلعت ملابس السهرة الأنيقة وارتدت بذلة عمل نظيفة. أقلّها مارتن إلى المستشفى وهناك وجدا سيارتي إسعاف في مدخل الطوارىء، وسمعا عويل سيارة أخرى تقترب..

قال: أعطني مفتاحك.. سأنتظرك في الشقة.. اتصلي بي عندما تكونين جاهزة للعودة إلى المنزل، وسآتي لأقلّك.

ما هي إلا نظرة واحدة إلى وجهه حتى مات الجدال على لسانها.

ـ حسناً. . ولكن اتصل بجبرالد لإبلاغه بما حصل.
ـ بالتأكيد. . .
ـ أراك في ما بعد.

* * *

٧ ـ إنها تحبه

مرت أربع ساعات قبل أن يرن جرس الهاتف في الشقة حيث كان مارتن الذي أسرع إلى المستشفى. صعدت إلى السيارة مبتسمة وقالت:
ـ لا بد أنك متعب.
ـ نمت قليلاً.
استندت إلى ظهر المقعد تغمض عينيها لئلا تتحدث إليه. . في الشقة مدت يدها لتأخذ منه المفتاح بدون أن تنظر إليه:
ـ آسفة لأنني أبقيتك مستيقظاً حتى وقت متأخر مارتن. . ستقود بحذر. . أليس كذلك؟
ركل الباب بقدمه ثم دفعها إلى الداخل أمامه. . قاومته قدر المستطاع وقالت بصوت مرتفع:
ـ أنا متعبة. . أرجوك اذهب مارتن.
ـ ليس قبل أن أعرف ما خطبك.
ـ قلت لك. . أنا متعبة!
سمعت صوتها ينهار عندما أقفل الباب خلفه.
ـ الأمر أكثر من هذا فلماذا لا تقولين لي ما الذي جرى؟
كانت ترتجف كورقة في مهب الريح، رأسها منحني وقبضتاها مشدودتان على جنبيها. . لقد رآها ضاحكة، غاضبة، محبّة لعائلتها. . لكنها الآن في أسوأ أوقات ضعفها وهذا ما تكرهه، مع أنها لا تستطيع تغييره. .

www.liilty.com

هزت رأسها: «كل ما أحتاجه هو بعض النوم».

ـ هل مات أحد؟

لامس وتراً حسّاساً. . وكتمت شهقة بكاء لكن كان هناك شهقة أخرى تتجمع في حلقها، وأخرى. . فجأة أجهشت تبكي بشدة فانتظرها مارتن حتى خف بكاؤها تدريجياً.

تمتم: أخبريني ما جرى ساري. . ثقي بي، لن أخبر أحداً.

تعرف أن بإمكانها الثقة به، والاعتماد عليه أيضاً. قالت بصوت مرتعش: «قتل شخصان رغم كل ما بذلناه من أجلهما. . ولكن الأمر أكثر من هذا. . أنا! أنا أكره ذلك الجزء من عملي، ضحايا الحوادث والتصادم والدماء والألم والصدمة. أنا واحدة من فريق عمل طبي تقوم بعملها على أكمل وجه! ولكنني لا أستطيع أن أفصل عواطفي عما يجري. . هذا مستحيل! هكذا ينتهي بي الأمر دائماً».

ذرفت المزيد من الدمع ثم أردفت:

ـ أريد أن أنفخ أنفي.

أعطاها منديلاً ورقياً من العلبة: «خذي. . ».

ثم قال: «هل ارتكبت يوماً غلطة ما؟ هل أخطأت وأنت تعملين مع ضحايا حادثة تصادم؟

ـ لا.

ـ إذن أنت تعملين بأكبر قدر ممكن من الكفاءة.

ـ لكن. .

ـ لكن لا شيء. . أظن أن عدداً لا يستهان به من فريقك يعاني من المشاعر ذاتها. . ربما هم أكبر سناً وأكثر خبرة بحيث تعلموا إخفاء مشاعرهم أو السيطرة عليها. . صديقك الطبيب مثلاً. . لا شك أنه يكره أن يخسر مريضاً.

ـ أجل إنه يكره هذا. . لكنه لا يذهب إلى البيت باكياً.

ـ نتعامل مع الأشياء بطرق مختلفة ساري. . ربما يذهب إلى بيته

ليحطم الأطباق على الجدار.

ابتسمت باكية من فكرة قيام ريكي «المبرمج» بشيء كهذا.

ـ أشعر بأنني جبانة. . من الخارج أنا هادئة ولكنني في أعماقي كتلة أعصاب متوترة.

ـ وهذا أصدق أنواع الشجاعة، أن تقومي بما يجب عليك حتى وأنت متوترة.

ـ أوه.

هذا ضوء جديد على تصرفها.

ـ إن أصحاب المخيلة والحساسية يتأثرون بمآسي الآخرين ساري.

استوعبت هذا بصمت ثم قالت:

ـ إذن أنت لا تحتقرني بسبب ما أحس به. . أو بسبب الانهيار؟

هزها بلطف ليؤكد على كلماته:

ـ بالطبع لا! بل يجعلني هذا أقدّرك أكثر.

ـ لم أخبر أحداً بهذا من قبل.

ـ ولا أعتقد أنك فعلتِ، وأنا سعيد لمشاركتي سرّك.

ـ وأنا كذلك. يجب أن أعود إلى العمل في السابعة.

ـ إذن من الأفضل أن تنامي.

رفعت نظرها تنظر إلى عينيه مباشرة، وأدهشها أن ترى فيهما نظرة حنان غير حذرة جعلت قلبها ينخلع من مكانه في صدرها. . وقالت ببساطة:

ـ شكراً لك مارتن.

ابتسمت له، تحاول تجربة قوة سلطتها عليه، تعرف أن سلطته عليها أقوى من أن تتجاهلها أو تقاومها. . وتمتم:

ـ لقد مضى زمن طويل. .

صمت فجأة. . وأصبح الألم الذي يجمد وجهه ألمها.

ـ مارتن. . ما بك؟

هوت يداه إلى جنبيه. . وخطا بعيداً عنها، يبدو كمن تلقى ضربة في معدته. . مرر يده على وجهه، وأردف:

ـ يا إلهي. . ماذا أفعل؟ يجب ألا أكون هنا. . هذا عدا. . ساري. . أنا آسف.

أحست أن الدنيا تميد من تحت قدميها، لكن الكلام الذي تسارع إلى لسانها مات قبل أن يولد. سمعت نفسها تقول:

ـ مارتن، ليس هناك ما تأسف عليه.

نظر إليها وكأنه لم يرها من ذي قبل. وقالت خائفة من تعابير وجهه:

ـ أرجوك. . قل لي ما بك!

بذل جهداً لا إرادياً كانت كلفته باهظة. قال:

ـ أنا آسف ساري. . لا علاقة للأمر بك. . صدقيني. إنه أمر من الماضي. . أمر لا أدري إن كنت سأتخلص منه أبداً.

ـ زوجتك؟

ـ أجل. . كارولين.

ـ حدثني عنها مارتن.

تغيرت ملامحه:

ـ لا أدري إن كنت أستطيع. . لم أخبر أحداً عن. . ما حدث!

شعرت بأنها تقاوم عدواً مجهولاً. . عدواً مختبئاً في الظل ولكنه حقيقي. أمسكت ساري يده تجذبه إلى الأريكة وقالت:

ـ تعال اجلس. كيف التقيت بها؟

عندما بدأ الحديث، شعرت أنه لم يعد يعي ما يحيط به وأنه أصبح على مسافة بعيدة زماناً ومكاناً. .

قال بهدوء: «التقينا صدفة. كنت عائداً إلى محطة الأبحاث الذرية حيث أعمل في وقت متأخر من الليل، أما هي فكانت مسافرة في الاتجاه المضاد ولكن إطارها كان مثقوباً، لذا توقفت على جانب الطريق. . فتوقفت ونزلت لأرى ما إذا كان بإمكاني مساعدتها. . إنها أجمل مخلوقة

رأيتها. . شعرها أسود قاتم يلمع كالحرير، وعيناها زرقاوان كلون البحر في يوم صيفي».

صمت فترة قصيرة ضاع فيها في الذكريات. . فانتظرت ساري وبدا أن جزءاً منها يرغب في أن يقول له توقف، لكن الجزء الآخر، الجزء الذي يجعلها متزنة في أسوأ المحن في المستشفى يعرف أن عليها أن تعرف عنه كل شيء.

ـ كان اسمها كارولين فروست. . بدأنا الكلام عن الأمور الشخصية مباشرة تقريباً، وكأنما لا وقت نضيعه. . كانت مطلقة من رجل يكبرها بكثير ويغار عليها حتى الجنون، بحسب قولها إن زواجهما كان غلطة منذ البداية. . أما أنا فرحت أكلمها عن والدي وعن أعمالي وعن أمور لا أناقشها مع أحد عادة. . عندما أنهيت تغيير إطار سيارتها، وجدت أننا اتفقنا على العشاء في الأمسية التالية. . بعد شهر من هذا، تزوجنا.

رفع رأسه ولكنه ظل يحدق إلى يديه.

ـ لم أكن سعيداً يوماً كما كنت في تلك الفترة، وكأنما كل حياتي تتجه إلى ذلك اللقاء فقط. . أشترينا منزلاً كبيراً في تورنتو وبدأت أنتقل منه وإليه. إنها فتاة مدينية ولم تكن تحب الحياة في محطة أبحاث. . وكانت المرة الأولى في حياتي التي أبتهج فيها لأنني غني، فقد كانت ممتنة سعيدة بما يقدمه المال: المنزل والخدم، والثياب التي تشتريها والسفر والحفلات التي كنا نقيمها، كانت تحب دائماً أن يلتف حولها الناس. . إن أكثر ما كانت تحبه هو الضيوف وإقامة حفلات والعشاء، والخروج إلى السهرات.

عبس قليلاً: «في البداية بدت بائسة. . فقالت إن إنجابنا لطفل قد يقف حائلاً بيننا، فنحن سعيدان كما نحن. . وكنت أطمئنها وأقول لها إن لا شيء قادر على الوقوف بيننا. . أخيراً اقتنعت، وأنجبت ابنتنا ڤيكي بعد سنة ونصف من زواجنا».

للمرة الأولى منذ بدأ الحديث تذكر وجود ساري.

قال ببطء: «كانت سعادتي تخيفني أحياناً ساري.. كنت سعيداً لأن لدي كارولين وڤيكي التي تعلقت بها ما إن ولدت.. يومذاك كنت كثير الانشغال، لكنني أمضيت دوماً أكبر قدر ممكن من وقتي معهما، وعندما كان يستحيل عليّ هذا لم أكن أمنع كارولين من الذهاب إلى الحفلات، أو البقاء مع أصدقائها، أو حتى السفر إلى الخارج.. وهكذا انتهى الأمر..»

استوعبت ساري كل ما يقول.. وكونت صورة خاصة عن كارولين: امرأة جميلة متطلبة، تنفق أموال مارتن وتملأ منزله بأشخاص لا يرغب في صحبتهم دائماً.. ثم تتركه في أوقات أخرى بمفرده لتكون مع أصدقائها..

سألت بلطف: «وماذا حدث؟»

صمت قليلاً ليستعيد الوقائع.

- بعد سنتين من ولادة ڤيكي حدث تطور هام في المختبر.. تطور استدعى بقاء مجموعة صغيرة منا هناك مدة أسبوعين كنا فيها منقطعين كلياً عن الخارج.. كان عملاً في غاية السرية وعانيت ذلك الشتاء من ضغط شديد، لكنني أملت في النهاية أن أذهب مع كارولين وڤيكي في عطلة طويلة.. لكن كارولين لم ترغب في البقاء بمفردها في أثناء غيابي فكان أن رتبنا أمر سفرها مع ڤيكي إلى الكاريبي لأسبوعين على أن أنضم إليهما هناك، لم أكن سعيداً بالموقع الذي اختارته لأنه يقع في مكان تكثر فيه الاضطرابات السياسية.. لكنها تشبثت برأيها فقلت لنفسي إنني أقلق على لا شيء فسافرت ودفنت نفسي في مركز الأبحاث».

كان صوته قد خلا من كل إحساس.

- في نهاية الأسبوعين، ذهبت إلى المنزل لأوضب حقائبي فوجدت رسالة يقول فيها المرسل إن عليّ الاتصال بالفندق الذي تقيم فيه.. واختصاراً كانت قد قالت للمدير إنها ذاهبة لتقيم مع أصدقائها لبضعة أيام، وإن عليه الاحتفاظ بجناحها حتى تعود وأراد أن يعرف ما إذا كان حجزي ما زال قائماً.. ولم تكن قد تركت اسم وعنوان الأصدقاء.. ولم تعد.. من

عادة كارولين أن تغير خططها لذا لم أقلق كثيراً.. على أي حال، حين وصلت إلى هناك لم أجد رسالة منها وحينما سألت بضعة أشخاص ممن تعرفهم هناك أخبروني بأنهم لم يروها ومنذ ذاك الوقت لم أرها أو أر ابنتي.

- مارتن! لكن ماذا حدث؟

- قصدت الشرطة بالتأكيد.. فقبل سفرهما عانى البلد من أحداث أليمة.. لذا احتملت أن تكونا قد اختطفتا وقتلتا.. ولم يكن هناك أي أثر لجثتيهما، لكن هذا لم يكن عجيباً فهناك آلاف الجزر الصغيرة والبحار مليئة بسمك القرش.

أرعبتها صراحته القاسية.

- لكن مارتن.. هذا رهيب!

نظر إليها بعينين جامدتين كالحجارة:

- آه! أجل. لكن أتعلمين ما هو الأسوأ؟ بعد اختفائهما رحت أفكر في أمور كثيرة.. فتذكرت تصرفات صغيرة كانت تقوم بها.. تذكرت نفاد صبر كارولين بسبب متطلبات عملي وخيبة أملها التي شعرت بها عندما اكتشفت أنها حامل.. وتذكرت كم كانت تترك الطفلة ڤيكي مع مربيتها لتقيم أو لتشارك بحفلة.

مرر أصابعه في شعره:

- وكرهت نفسي على هذا التفكير، ولكنني تساءلت ما إذا سئمت مني واختارت الاختفاء.

تجاهل استهجان ساري وأردف بقوة:

- استخدمت مكتب تحريات لتقفي أثرهما، لكنهم لم يجدوا شيئاً.

- ولم تعرف ما حدث؟

- لا.

- مارتن! ما أفظع ما أسمعه! أن تعرف أنهما ميتتان خير من بقائك على حيرتك هذه طوال حياتك.

- هناك شيء آخر.. منذ سنة أي بعد ثلاث سنوات على اختفائهما

التقيت شخصاً عرف كارولين خلال زواجها الأول. . كانت روايته عن ذلك الزواج مختلفة كلياً عن روايتها. . لقد ذكر لي أن زوجها الأول كان يغار عليها لأن لديه أسباباً وجيهة لغيرته وقد أقنعني ذلك الرجل فقمت بشيء أندم عليه أحياناً وهو الطلاق. نعم لقد طلقتها. . فقد برهنت للمحكمة أنني حاولت تقفي أثرها بدون جدوى.

ـ ولم تسمع عنها شيئاً؟

ـ أبداً. . وها أنت ترين ما فعل هذا بي ساري. . كارولين إما كانت ضحية العنف، وفي هذه الحالة حبي وثقتي بها حقيقيان ومبرران. وإما شخصية أخرى، امرأة كاذبة غشاشة مخادعة. . وفوق هذا كله سارقة لأنها سرقت طفلتي مني.

ـ لن تعرف أبداً ما كانت.

همست ساري كلامها بذعر:

ـ هذا صحيح، وهذا يعني أيضاً أنني لن أستطيع التحرر من الماضي. . ولهذا أعتبر الطلاق زائفاً فبنظري أنني متزوج وهكذا سأبقى دائماً.

ـ إذن لهذا تبعد نفسك عن الناس إذ لا تريد أن تتورط.

مالت إليه ويداها ممدودتان توسلاً:

ـ لكن. . لكنك منجذب إلي. . أليس كذلك مارتن؟

اعتلت فمه ابتسامة مريرة:

ـ أجل. . لا مجال لنكران هذا. . أنت المرأة الوحيدة التي استطاعت التقرب مني في السنوات الأربع الأخيرة. . ربما لأنك مختلفة كل الاختلاف عن كارولين. . لكن ذلك لن يؤدي إلى أي اختلاف إذ لن أتزوج ثانية. اتخذت هذا القرار منذ أربع سنوات ولن أعدل عنه.

أرادت أن تجادله لكن ماذا تقول له. كان رأسها يدور بمزيج متزايد من الإرهاق والمشاعر، بحيث أحست أنها ستجهش بالبكاء ثانية.

قالت: «بعد ساعة سأعود إلى العمل، أما الآن فسأستحم فلعل هذا

يبقيني مستيقظة. وماذا عنك؟ أراك متعباً مارتن فلماذا لا تستلقي قليلاً قبل أن تعود إلى المنزل؟»

ـ شرط أن أحضر أنا لك الفطور. .

قالت: حسناً! شريحة لحم وبيضتين. . هناك عصير برتقال في البراد، وقهوة. .

ـ في العلبة التي تحمل اسم الشاي.

قهقهت عالياً: كيف لك أن تقول شيئاً كهذا؟

هبَّ واقفاً فأردفت: «لن أتأخر».

فيما كانت تستحم راحت تفكر في ما أخبرها به غاضبة وكان غضبها موجهاً إلى كارولين الغائبة التي لا تظنها ميتة فمن خلال حديثه تبين لها أنها ليست من الصنف الذي يعرّض نفسه لأي خطر. . لا، إنها على قيد الحياة. لا شك أنها هجرت مارتن بهذه القسوة من أجل «صيد» أكبر، ولأسباب منحرفة. لكن ساري لا تملك دليلاً على هذا. . مع أنها مستعدة للمراهنة على ما تفكر فيه.

وجدت مارتن قد أعدّ فطوراً معتبراً. مطبخها عبارة عن غرفة صغيرة ضيقة على شخصين خاصة إذا كان أحدهما ضخم البنية مثله. .

أندم مارتن لأنه أفضى بسره إليها؟ . . فقد تناول الطعام بصمت ثم وقف لينظف الصحون. .

قالت بارتباك: «لست مضطراً لهذا. . سأنظفها لدى عودتي».

ـ الشيء الوحيد الذي يناسبك عند عودتك هو الفراش. هل تريدين أن أقلّك إلى العمل؟

ـ لا. . المستشفى غير بعيدة. . مارتن، أرجوك نم قليلاً قبل أن تعود إلى منزلك. . من الخطر القيادة وأنت متعب.

لان وجهه: «أعدك بذلك، أنت لطيفة كثيراً لأنك تقلقين علي».

ـ ألم تكن كارولين تقلق عليك؟

وكان سؤالها خطأ فادحاً، إذ قال بحدة:

- لا أريد التحدث عنها ساري.

أحست أنه صدها بتكبر، فقالت متوترة:

- آسفة.. من الأفضل أن أذهب.. لن يضيرني أن أصل مبكرة قليلاً.. لكن تأكد من إقفال الباب حين تخرج.

هز رأسه ولكنه لم يتحرك، فالمرأة السوداء الشعر كانت بينهما وكأنها موجودة فعلاً: وداعاً.

في الخارج كان المطر يتساقط والغريب أنها شعرت بالراحة فهذا الجو يليق بمزاجها.

عندما عادت وجدت مارتن نائماً على أريكة. جسمه الطويل ممدد باسترخاء، أنفاسه عميقة منتظمة.. بدا أصغر سناً وهو نائم وأضعف حالاً.. أهدابه سوداء كثيفة جداً. فجأة علقت أنفاسها في حلقها، فقد أدركت في هذه اللحظة وبكل هدوء، ما عرفته في لا وعيها «أنها تحبه» ولهذا تكره كارولين بمرارة، ولهذا يخفق قلبها ألماً على مأساته.. ولأجل هذا استجابت مشاعرها له.. إنها تحبه.. هذا هو الأمر بكل بساطة.

ضاعت في روعة اكتشافها. كانت شفتاها تلتويان بابتسامة خفيفة عندما تسللت على رؤوس أصابع قدميها إلى غرفتها حيث خلعت عنها ثوبها ودخلت إلى الفراش، وكان آخر ما فكرت فيه أن مارتن نائم على بعد أقدام منها.. مارتن الذي تحبه!

* * *

استيقظت ساري من حلم مشوش كان فيه الولدان يطالبان بالعشاء. فركت عينيها ونظرت إلى الساعة: إنها الخامسة والربع.. ماذا تفعل في الشقة؟ لا شك أن جيرالد قلق عليها.. هبت من فراشها وأسرعت إلى غرفة الجلوس تستخدم الهاتف.

وجدت مارتن جالساً في مقعد يقرأ.. فتذكرت بسرعة أحداث الأربع وعشرين ساعة الماضية.

- أوه.. أنا.. لقد نسيت..

ترك الكتاب من يده وتقدم منها فقالت:

- يجب أن أتصل بجيرالد.. سيقلق عليّ.

- اتصلت به وشرحت له أنك نائمة. سأقلك إلى المزرعة بعدما نتناول العشاء.

كان صوته يقرر أمراً واقعاً.. فلماذا إذن تتسارع خفقات قلبها؟ ما إن اقترب منها حتى غرقت في بحر من العواطف الجيّاشة فراحت تقول له: أحبك.. أحبك..

أحست بصدمة تضرب جسده، فراحت عيناها تبحثان في وجهه.. لترى في عينيه الألم والمرارة والارتباك.. عادت إلى الواقع بحدة.

- مارتن.. ماذا جرى؟

انتزع الكلمات من فمه انتزاعاً:

- يجب ألا تقولي هذا ساري.

- إنني أحبك؟ لكن..

كرر بقوة أكبر:

- يجب ألا تكرري ذلك! فهذا غلط لأنني غير قادر.. على مبادلتك الحب.. ستكون دائماً موجودة بيننا.. ألا ترين هذا؟

أحست بألمه وإحباطه فارتدت مبتعدة ثم قالت له وكأنه أحد الولدين أو جيرالد:

- لا بأس عليك.. أفهم هذا.

في هذه اللحظة بدأت تفهم شيئاً عن الرباط الذي يضم جيرالد ولي آن.. هناك تجاذب بدائي، واندفاع غريزي في الدم، ضروري كالهواء الذي يتنفسه المرء.. لكن هناك أيضاً حنان يملأ قلبها الآن وحاجة إلى مواساته وتفهمه.. خلف كل المعلومات التي اطلعت عليها كان هناك غضب حارق يتصاعد ضد كارولين التي شلت رجلاً يساوي عشر نساء من مثيلاتها.. لقد تركته، لا زوجاً ولا أرمل، لا متزوجاً ولا مطلقاً.

بعد صمت قال:

ـ أظنك فهمت.. أليس كذلك ساري؟ لا أستطيع إلا أن أشكرك.. أنا لا أستحقك.

ـ بل أنت تستحق من هي أفضل مني.

ـ لا تقولي هذا.. أنت امرأة جميلة ساري.. جميلة جسداً وروحاً.

أحست بالدموع تترقرق في مآقيها.

ـ لا تبكي.. لا أريد إتعاسك.. أنت مختلفة تماماً عن كارولين.. لكن إذا كان هناك من يستطيع تحريري من الماضي، فهو أنت. هذا ما أعرفه.. وأعرف شيئاً آخر.. أريد أن أراك دائماً.. يجب أن أراك.. فهل ترغبين في هذا؟

هزت رأسها موافقة لأنها عجزت عن التفوه بكلمة فإنه الدليل الأول والأمل الأول.

ـ من الأفضل أن نخرج.. سنخرج لنتناول العشاء وبعد ذلك أقلّك إلى المزرعة. هل أقدر على زيارتك هناك مساء الغد؟

ابتسمت له وحبها يشع على وجهها بدون كابح: نعم بالتأكيد.

خلال العشاء، وخلال الطريق إلى المزرعة كان بينهما تقارب حميم.. نوع من العشرة السهلة كانت إحساساً جديداً في علاقتهما، لكن مع مرور الأيام لم يبق هذا الإحساس معهما فقط بل تعمق واشتد. ركبا الخيل معاً، سارا في البستان، التقيا في المدينة لحضور السينما أو المسرح، أمضيا الأمسيات في المزرعة.. وآمنت ساري بواقع أن مارتن يريد البقاء معها. راحت تغني وهي تعمل سواء أكانت في المستشفى أم في بيت المزرعة وظهر التوهج على وجهها.. ولم تخف سعادتها بل شملت مارتن الذي ازداد ضحكه وفقدت عيناه تلك النظرة الزائغة المريرة..

لم يبق سوى خمسة أيام على موعد عودة لي آن إلى المزرعة، لذا أخذت ساري عطلتها لتكون في المزرعة عند وصول لي آن وخصصت جزءاً من وقتها لتنظيف البيت على أكمل وجه. كانت تغسل الجدران والستائر والنوافذ.. وتضع طبقة من شمع التلميع على الأرض الخشبية

حين رن جرس الهاتف، تسارعت تمسح يدها بالقماش وذهبت لترد: آلو؟

ـ ساري أنا مارتن.

في صوته ما جعلها تسأل بحدة:

ـ هل من خطب؟

بدا وكأنه بعيد.

ـ أيمكنك المجيء إلى هنا؟

ـ الآن؟

ـ أجل.. أراك بعد دقائق.

وأقفل السماعة.

نظرت ساري إلى الآلة بارتباك وكأن الآلة قادرة على الإجابة عن الأسئلة الدائرة في رأسها.

هرعت إلى الطابق العلوي لتنزع ثياب العمل ولترتدي بنطلوناً وكنزة. عندما عادت إلى الأسفل، كتبت مذكرة سريعة لجيرالد ثم انطلقت بسيارتها بسرعة.

كان الزنبق البري الليلكي في أوج ازدهاره في حديقة مارتن.. والشجيرات الشائكة مكسوة بزهر فوّاح العطر أحمر اللون.. لو كانت في ظرف آخر لوقفت هنيهة تملي النظر. أما اليوم فأوقفت السيارة وهرعت إلى الباب الأمامي الذي لم تجده مقفلاً، فدخلت.. كان صمت المنزل الكبير ملموساً.. إنه منزل بأمس الحاجة إلى زوجة وأولاد.. ليتها تكون تلك المرأة..

ـ مارتن؟

لا جواب.. هرعت إلى غرفة الجلوس فإذا هي فارغة.. عادت إلى الردهة فألقت نظرة سريعة على المطبخ فوجدته فارغاً أيضاً.. عندئذ عادت إلى غرفة الجلوس.. وهناك وجدته واقفاً وسط الغرفة مديراً ظهره لها. في هذه اللحظة تلاشت الاعتبارات الأخرى أمام ارتياحها.

ـ مارتن؟ مارتن.. أنا هنا!

وكأنه لم يسمعها. . ما هي إلا لحظات حتى التفت إليها، فشهقت بحدة. . كان وجهه شاحباً كالأموات وعيناه مشبعتان بالصدمة. كانت كل حركاته غير متناسقة وكأنما أطرافه ليست له. . ورأت في يده ورقة.

اجتازت المسافة الفاصلة بينهما وأمسكت بمرفقيه وكأنها تخاف أن يقع:

ـ ما الأمر؟ أخبرني. .

نظر إلى وجهها المرفوع إليه، فبدا أنه يرى وجهاً آخر مختلفاً. . فكررت.

ـ أخبرني ماذا هناك.

نظر إلى الورقة المجعدة في قبضته، ثم مد يده إليها. . أخذت الورقة وفتحتها. كانت برقية. . في البداية، بدت الكلمات تدور أمام عينيها. . ثم أصبحت كلمات منفصلة تحمل رسالة مترابطة، قاسية، قصيرة يعود تاريخها إلى اليوم السابق. مرسلة من مكان ما في الولايات المتحدة يدعى ستوني كريك، كارولينا الشمالية:

«آسفون لإبلاغك بموت زوجتك كارولين ڤرجيني ريڤز. . نرجو إعلامنا على العنوان المرفق بالترتيبات التي تريدها لابنتك ڤيكي روزالين ريڤز» وتبع هذا اسم رجل: غارت لايكرز.

قرأت البرقية مرة ثانية. . وثالثة. . كارولين ماتت، وفي مكان غير معروف من أميركا الشمالية وليس في الكاريبي، ماتت ولكنها لم تمت منذ أربع سنوات بل ماتت مؤخراً، وڤيكي ابنته حية ترزق. . وهي الآن في السادسة من عمرها. .

سألت بصوت هادىء: ماذا ستفعل؟

اخترق سؤالها صمته الذي فرضه على نفسه، فقال بصوت أجش:

ـ كانت حية. . كانت حية طوال هذه المدة. أخذت ڤيكي مني وتركتني. . كيف أمكنها فعل هذا؟ كيف تمكنت من ذلك؟

بم تجيب عن أسئلته؟ ردت بهدوء:

ـ حين تذهب إلى هناك. . تعرف السبب، ألن تذهب؟

سحب نفساً عميقاً: أجل. . يجب أن أذهب.

ـ ابنتك حية ترزق مارتن. . هذا هو المهم.

ـ أجل. . لم أرها منذ كانت في الثانية. . ولا أعرف كيف تبدو.

ـ ستصبح لك الآن. . وقد تأتي لتعيش معك.

تألم قلبها وهو ينظر في الغرفة اللطيفة الغارقة بأشعة الشمس، الواضح أنه يحاول تكييف نفسه.

ـ الأفضل أن أتصل بغارت لايكرز هذا. . هل ترافقينني ساري؟

ـ إلى كارولينا الشمالية؟ لتأتي بڤيكي؟ لكن يجب أن أكون في المنزل قبل عودة لي آن، هذا كل شيء.

ـ سنسافر غداً.

ـ أجل. . أستطيع الذهاب.

ـ فتاة طيبة! سأتصل الآن، أعود بعد دقيقة.

مرت حوالى خمس عشرة دقيقة قبل أن يعود. . كانت ساري واقفة قرب الأبواب الزجاجية تنظر إلى الحديقة الغناء تفكر في كارولين التي خدعته عامدة متعمدة مدة أربع سنوات من عمر ابنته؟

كسر صونه أفكارها:

ـ لقد تكلمت مع السيد لايكرز، بإمكاننا أخذ ڤيكي متى شئنا وكنت محظوظاً لأنني وجدت مقعدين على رحلة الطائرة غداً. . أما العودة فبعد يومين. . رتبت أمر استئجار سيارة في مطار «شارلوت».

ـ عظيم. . أنت تتحرك بسرعة!

ـ ألم تغيري رأيك؟

ـ لا. . سأرافقك. . الأفضل أن أعود الآن إلى المزرعة لأنهي تنظيف المنزل ولأوضب حقيبتي.

ـ احملي معك ثياباً صيفية، فالطقس دافىء هناك. سأصطحبك في السابعة صباحاً. . يجب أن نستقل أول طائرة إلى هاليفاكس، لنستقل

بعدها طائرة بوسطن.

أحست ساري كأن إعصاراً التقطها وأدارها حول نفسها حتى فقدت الحس بالمكان والزمان.

ـ أراك غداً.. إذن.. وداعاً.

لم يسبق لساري أن سافرت قط، لذا كانت مذهولة بمقعدها الذي كان قرب النافذة على متن النفاثة التي طارت بهما إلى بوسطن، وبالفطور الذي قدم لها على صينية بلاستيكية على يد مضيفة أنيقة.. في بوسطن، انتظرا ساعتين، وأمضيا معظم الوقت جالسين على مقعد خشبي يراقبان حركة المسافرين الدائمة.. وبقيا هناك حتى أقلعت الطائرة، شيء منعها من طرح الأسئلة، وفي الطائرة تناولت وجبة طعام أخرى، ثم نامت.

أيقظها تغيير ما في صوت المحركات والسبب أن الطائرة توشك أن تحط، أعادت لمسة أحمر شفاه إلى شفتيها ولامست شعرها ثم ملست تنورتها..

بعدما تناولا حقيبتيهما ووقع مارتن وثائق السيارة، انطلقا إلى خارج المطار حيث صدمتها الحرارة والرطوبة والسماء الزرقاء المتوهجة.. كانت السيارة متوقفة تحت الشمس، لذا بدت حارة كالفرن. وقال مارتن:

ـ ما إن نتطلق حتى يبردها المكيف. جاهزة؟

وكان على حق، فما إن مرا بالمدينة باتجاه الطريق الرئيسية حتى كان المكيف يرسل دفقاً مستمراً من الهواء البارد فبدأت ساري تسترخي.

تمتمت: «لا أصدق أننا اجتزنا هذه المسافة كلها في وقت قصير.. أوه.. انظر إلى تلك الشجرة العظيمة ذات الأزهار الوردية اللون مارتن.. أتساءل ما هي يا ترى؟»

ـ ليس لدي فكرة.. افتحي الخريطة رجاء؟ أظن أن علينا الانعطاف شمالاً بعد ستايتفيل أليس كذلك؟

ـ على الطريق رقم أربعين.

التهمت السيارة الأميال، أخذ مارتن بقراءة الخريطة ووجد طريقة إلى

«بلوريدج بارك واي».

ـ حجزت غرفتين في نزل ريفي قرب «ستوني كريك» فمن الأفضل أن نذهب لرؤية ڤيكي صباحاً لا مساءً ونحن متعبان.

إنها المرة الأولى التي يذكر فيها الغرض من رحلتهما.

ـ هذا قرار حكيم.. تعرف أننا قادمان؟

قطب حاجبيه:

ـ طلبت من السيد لايكرز أن يخبرها.. أتعرفين؟ شعرت أن في حديثه شيئاً ما، لكنني لم أفهم ما هو. أرجو ألا يكون شيئاً هاماً..

ـ قد يكون الأمر صعباً عليك وعلى ڤيكي في البداية، وقد لا تتذكرك.

ـ فكرت في هذا! انظري إلى الجبال إلى يسارك ساري.. أليست جميلة؟

لقد أقفل موضوع ڤيكي.. تنهدت ساري وصبّت اهتمامها على ما يحيط بها.

اكتشفت من خلال إعلان سياحي أن النزل يبعد عن شاتاندرو بارك في ڤيرجينيا أربعماية ميل، كانت أوراق الدفلى الكثيفة الوردية تزيد من عتمة الغابات فالوقت مبكر على ظهور براعمها.. أخيراً قال مارتن:

ـ أظننا سنتوغل إلى الأمام قليلاً.. فراقبي لوحة فندق «سموكي ماونتن».

لم يواجها لحسن الحظ مشكلة في إيجاد الفندق. فقد وصلا إليه عبر مجاز ريفي ضيق تسلقاه فوق سفح جبل، حدائقه كتلة من ألوان وتلاله قرمزية.. أتم مارتن الإجراءات ثم قاد السيارة إلى جناح بعيد من أرض الفندق. وقال لها باختصار:

ـ حجزت غرفتين متجاورتين تطلان على هذا المنظر الجميل، هيا بنا! إن غرفة الطعام تقفل بعد نصف ساعة لذا علينا التوجه إليها حالاً.

كانت ساري جائعة، مع أنها لم تفعل شيئاً طوال اليوم عدا الجلوس.. وكانت مرهقة.

قالت: «أعتقد من الأفضل أن نأكل».

ـ ستشعرين بعد امتلاء معدتك بأنك أفضل حالاً.

كانت غرفة الطعام أشبه بحديقة رسمية واسعة بأثاثها الأبيض وسجادها الأخضر القاتم، وبنباتاتها المعلقة المنظمة بفن. أما الخدمة فممتازة.. بعد الطعام عادا إلى غرفتيهما.. خارج بابها، وقفا. كان الجو هادئاً وبدا أن معظم النزلاء ذهبوا إلى النوم.

قال: نوماً هنيئاً ساري.

ـ وهذا ما أتمناه لك أنا أيضاً.

لا شك أنها في وقفتها تلك أثرت فيه.

ـ لست رفيقاً مسلياً.. وأنا آسف. أعتقد أنني لا أستطيع إبعاد يوم الغد عن تفكيري.. لكنني سعيد لأنك هنا معي.

عندما أضاءت ابتسامته النادرة وجهه، أحست بقلبها يذوب حباً له..

فقالت تطمئنه:

ـ هذا رائع! تصبح على خير مارتن.

ودخلت إلى غرفتها تقفل الباب وراءها.. من المفترض أن تستمتع بهذا كله.. فلماذا تشعر إذن بالوحدة؟ لا تكوني سخيفة! إنه على بعد عشرين قدماً.

لكنه لا يريد صحبتك.. كان ذلك الصوت الصغير الشرير يناقشها.. يريد أن يبقى وحيداً.. ليتذكر كارولين.

إنه قلق من لقاء ابنته، ولا شأن لكارولين بكل ذلك.

حسناً.. إذا كان هذا ما ترغبين به...

التقت عيناها الخضراوان بصورتهما في المرآة.. يمكنها الآن أن تحاول النوم.. يمكنها أن تقرأ.. أو.. يمكنها التسلل بهدوء إلى الخارج للجلوس في الكرسي الهزاز.. نعم هذا ما ستفعله.

تسللت حافية القدمين، فوجدت نفسها وحيدة كما توقعت.. جلست

على الكرسي الهزاز وأسندت رأسها إلى ظهره المرتفع، وأغمضت عينيها. من مكان ما في الفندق، سمعت صدى ضحكة ثم صوت باب سيارة.. لامس وجهها نسيم خفيف ولكنه لم يكن قوياً. بدأت تهز الكرسي بقدم واحدة ووجدت السكون نعمة.

ـ ألم تستطيعي النوم؟

فتحت عينيها وتوقفت عن هز الكرسي.

ـ مارتن! أخفتني.

ـ آسف.. لم أقصد إخافتك. خرجت أتمشى. هناك ممر يقود إلى ملعب غولف.

ـ إذن لم تستطع النوم أيضاً.

ـ لا.

كلمة واحدة، لكن ساري أحست من ورائها مشاعر متوترة.. مرة أخرى، أحست بامرأة سوداء الشعر تضحك عليها من بين الظلال.

لكن كارولين ميتة.. أما هي، ساري، فحية ترزق. وقفت تنفض أطراف ثوبها.

ـ بما أننا عجزنا عن النوم فلماذا لا تُريني ذلك الممر؟

تردد قليلاً ثم قال:

ـ يجب أن تنتعلي حذاء.. فالأرض وعرة.

ـ سأحضر صندالي.

عندما أصبحت على مقربة من الباب التفتت فوجدته وراءها.. كان قريباً بحيث كادت تحس بأنفاسه تلفح وجهها، فجأة كل ما كانت ستقول طار من أفكارها.

ران صمت امتد دهراً. همس: «ساري».

في صوته تردد جعلها تكبت تجاوبها معه..

ـ أنا بحاجة إليك.. ساري.

رفعت رأسها بكبرياء.. وقالت: «أحبك مارتن».

ـ سبق أن قلت لي هذا وليتني أستطيع أن أقولها لك. . لكنني لا أستطيع. فهناك شيء ما يحول بيني وبينها في كل مرة. . وقد لا أتمكن من قولها أبداً.

ابتسمت بوقار حزين: «لا بأس في هذا. . أفهم».

ـ أظنك تفهمين، أليس كذلك؟

قالت له وهي تريد أن تغيّر الموضوع:

ـ ألن ترافقني لنرى ذلك الممر؟

ابتسم ابتسامة حزينة: هيا فلننطلق.

عندما عادا كانا مرهقين ليس بسبب النزهة بل بسبب الرحلة وأفكارها.

قال لها وهو أمام بابها: تصبحين على خير ولم يزد. فتألمت لأنها أرادت منه أن يرفق كلمته تلك بكلام يشبع شوقها إليه ولكنه لم يفعل بل مشى إلى غرفته محني الرأس وكأن على رأسه آلاف الأطنان.

* * *

٨ ـ هروب إلى اليأس

استيقظت ساري بعد ليلة مضت كلمح البصر. . فتحت عينيها تفركهما بحركة طفولية، ثم نظرت إلى السّاعة. . . عليها النهوض حالاً فقد يصل مارتن في أية لحظة.

نهضت من السرير على عجل وهرعت إلى الحمام لتستحم. . عندما قرع مارتن الباب بعد نصف ساعة، كانت تضع اللمسات الأخيرة لماكياجها فوقفت تفتح له الباب. . وجدته مرتدياً قميصاً وربطة عنق حريرية تدل على ذوق رفيع. ووجدته في الوقت ذاته بعيداً متحفظاً في تصرفاته. . رأت تحفظاً بارداً في عينيه الرماديتين الباردتين. . لقد عاد غريباً. . غريباً وسيماً أنيقاً.

تألم قلبها ومع ذلك قالت: «أنا جاهزة تقريباً».

ارتدّت عنه عائدة إلى طاولة الزينة لتكمل تبرّجها. . لونت شفتيها بلون مرجاني وارتدت قرطاً صغيراً وعقداً ذهبياً في حلقات. . كان فستانها من قماش «الشيت» العادي مرتفع الياقة، طويل الكمين، له حزام عند الخصر. بدت فيه واثقة بالنفس وقد اختارته لهذا الغرض.

توجهت مع مارتن إلى شرفة غرفة الطعام. . كان الطقس دافئاً بعد بالمزيد من الحرارة، وانصب مجمل حديثهما على الطقس. وما إن عادا إلى الفندق حتى قال لها:

ـ أيمكنني شراء صحيفة؟

www.liilty.com

ـ شرط أن أحصل أنا على نصفها.

جلسا على مائدة الفطور يقرآن الصحيفة.. أنعشت الوجبة روحها المعنوية قليلاً.. مع ذلك كانت ممتنة حين دفع مارتن كرسيه إلى الوراء.

ـ انتهيت؟

ـ أجل.. شكراً.

خرجا إلى السيارة وهناك راح يلقي نظرة على الخريطة. تغلب عليها فضولها فسألت: «لم تقل لي إلى أين نحن ذاهبان؟».

ـ إلى مزرعة يقال لها «بريتي راتش» على بُعد ميلين من «ستوني كريك»، لا أدري ما إذا كانت ملك كارولين، أو ملك السيد لايكرز، أو ملك شخص آخر.. الزوج رقم ثلاثة، ربما.

طغى على صوته رنة بشعة وهو يردف:

ـ لا أعرف ما قد نجده عندما نصل إلى هناك عدا ڤيكي.. إذ لم يكن السيد لايكرز صريحاً عندما وصل الأمر إلى التفاصيل الحقيقية.

وأدار السيارة إلى الطريق الرئيسية. لكنهما تجاوزا المنعطف المناسب فاضطرا للعودة وهذا ما هدر من وقتهما ثلاثة أرباع الساعة. وأخيراً وصلا إلى طريق داخلية، وما إن ظهر المنزل حتى توقف مارتن ليتأمله بصمت.

كان المنزل، كما لاحظت ساري، مزيجاً من قلة الذوق ومن كثرة المال.. لكنه كان فخماً، مبنياً من أحجار صفراء شاحبة، أما الأعمدة الخمسة الضخمة فيونانية الأصل. بدا قديماً جداً وزائداً عن الحاجة في أرض تستحق ما هو أجمل منه.

قال مارتن: «حسناً..».

قال تلك الكلمة وكأنما لا يجد ما يضيفه.. نظر إلى ساري نظرة تآمرية شدت من عزمها كثيراً قبل أن يتابع سيره حتى الباب الأمامي وعندئذ ترجل من السيارة وخرج ليساعدها على الترجل بحركة شبه مسرحية. فتمتمت، تملس تنورتها متوترة:

ـ كان يجب أن أرتدي ثياباً قديمة الطراز.

ـ أو رداءً يونانياً طويلاً، وإكليل غار.

وضغط على الجرس.

لم تبدِ دهشة عندما فتح خادم طاعن في السن الباب، وقال مارتن بهدوء:

ـ أنا السيد ريڤز، وهذه الآنسة آثرتون. أنا والد ڤيكي.

ـ أرجو أن تتقدما من هنا، سيدي، سيدتي.

لحقا به إلى ردهة واسعة فيها المزيد من الأعمدة. كان كعبا حذاء ساري يطقطقان بصوت مرتفع على أرض رخامية والغريب أن ساري وجدت رغم أشعة الشمس التي تتدفق إلى المكان من النوافذ الكبيرة أن في هذا المكان شيئاً مشؤوماً لذا ظلت قريبة من مارتن..

راح الخادم يفتح سلسلة من الأبواب قادتهما إلى غرفة جلوس.. تأخرت ساري قليلاً عن قصد، إذ أرادت أن تترك المجال للقاء ڤيكي بأبيها أولاً.. وهذا ما أعطاها فرصة لتتأمل غرفة الجلوس التي كان طولها ما لا يقل عن مئتي قدم وفيها ثلاث نوافذ ناتئة إلى الخارج تطل على الأملاك من الخلف وأثاثها مغطى بقماش مخملي يخفف قليلاً من حدة السجادة البيضاء الناصعة.

شد الصمت الغريب الذي ران الغرفة اهتمامها إلى مارتن الذي وقف مسمّراً أمامها.. وسمعته يسحب نفساً واحداً ملؤه الصدمة، ثم سمعت صوت امرأة:

ـ مرحباً مارتن.

لأن ساري تحب مارتن فقد اعتادت على كل أمزجته، كانت كتفاه متشنجتين ويداه مضمومتين إلى جنبيه وهي حركة واضحة تنبىء بأنه تلقى صدمة رهيبة.. خطت خطوة إلى الأمام وكانت مستعدة في عقلها لما تراه، لذا تصرفت بشكل طبيعي أكثر منه.. وقالت بكل برود للمرأة السوداء الشعر الجالسة بكل رشاقة على مقعد ذي مسندين:

ـ صباح الخير . . أعتقد أنك كارولين؟

مرّ بالعينين الزرقاوين اللتين لم تر ساري بجمالهما قط تعبير بعيد كل البعد عن الجمال . . ثم استعادت المرأة توازنها بسرعة :

ـ أجل . . أنا كارولين ريفز . وأنت . . ؟

ترك هذا التبادل القصير للحديث مجالاً لمارتن حتى يسترد السيطرة على نفسه . . فقال بجفاء :

ـ إنها ساري آثرتون . . نحن جاران .

ـ هكذا إذن . . ابنة الجيران .

لم تجد ساري ما هو مميز في ابتسامة الشفتين الجميلتين أو الصوت الرقيق ، مع ذلك تورد وجهها وقالت بالرقة ذاتها :

ـ أنا أصغر من مارتن سناً بكثير . . ولكنني لست ابنة صغيرة .

تركت الرسالة التي تقول بصراحة : إنني أصغر منك سناً بكثير أيضاً ، معلقة في الهواء .

قاطعهما مارتن بنفاد صبر :

ـ لقد تلقيت برقية ذكر فيها أنك متّ مؤخراً ، فمن أرسلها؟

ضحكت كارولين ضحكة تساهل :

ـ لم تتغير ، أليس كذلك حبيبي؟ كنت دائماً تصل إلى النقطة المهمة . . ولكن . . أرجوكما . . لقد نسيت حسن الخلق . . اجلسا لأطلب لكما القهوة من لايكرز .

تجاهل مارتن دعوتها : لايكرز؟

ـ أجل . . الخادم .

ـ هكذا إذن . . هلاّ توقفت عن التصرف وكأن هذه مناسبة اجتماعية لطيفة كارولين . . أخبريني من أرسل البرقية؟ الواضح أن لايكرز ليس المرسل .

ـ حسن جداً . . أنا أرسلتها .

قال بصوت مميت : «وهل تفسرين السبب؟»

رفرفت أهدابها السوداء الطويلة :

ـ لم أعرف ما أفعل غير هذا مارتن ، كنت بحاجة إلى رؤيتك بشكل يائس . . لكنني خشيت ألا تأتي إن راسلتك أو اتصلت بك فكان أن لجأت إلى إرسال البرقية .

ـ منخدة من ڤيكي طعماً .

ـ ڤيكي بحاجة إلى أب ، مارتن . لقد ربيتها بأفضل ما استطعت . . لكن يصعب على امرأة بمفردها . .

سحب مارتن نفساً قصيراً آخر .

ـ وفري عليّ سماع «تضحيات الأمومة المعذّبة»! ما دمت تقولين إنك وحيدة فلمن هذا المنزل؟

ارتفع الذقن الرقيق الأنيق بشجاعة :

ـ كان منزل كون . .

لا تخدع هذه الرجفة الزائفة في صوتها أحداً . . تقدمت ساري لتجلس على ذراع مقعد فلم يلاحظ مارتن أو كارولين حركتها .

بصبر نافد سأل مارتن :

ـ ومن هو كون هذا؟

ـ إنه الآن متوفى . . كان أفضل . . صديق عزيز لي .

ـ بكلمة أخرى ، هو من كان يعيلك . . ولأنه مات تبحثين عن شخص آخر ليحلّ محله .

وقفت كارولين تمد يديها متوسلة :

ـ أرجوك مارتن ، لا تغضب عليّ . .

دنا منها خطوة وكأنه يهمّ بالإمساك بها ليهزها ولكنه عاد فعدل :

ـ أتطلبين مني عدم الغضب؟ كارولين ألا تعرفين ماذا فعلت بي؟ في السنوات الأربع المنصرمة لم أعرف ما إذا كنت أنت وڤيكي على قيد الحياة أم ميتين . . لقد اختفيت بدون أن تتركي أثراً ، ولم تكتفي بذلك بل أخذت ابنتي معك فكان أن سلبتني كل تلك السنوات التي كان يجب أن تكبر فيها

معي، ثم تطلبين ألا أغضب.

ـ أعرف.. كان عملاً رهيباً قمت به.

ـ رهيب.. كان عملاً إجرامياً.

ـ كنت يائسة مارتن.

دنت منه لتقف قربه ولكنها لم تلمسه، كان تبرجها بارعاً يبرز شحوب بشرتها ولا يخفيه.. رأت ساري أن الحلية الوحيدة التي كانت تتزيا بها هي خاتم الزواج الذهبي..

أضافت: «ليتني أجعلك تفهم..».

رد بعينين قاسيتين كالفولاذ: «جرّبي».

ضاع وجهها في الذكريات.. وبدأت تذرع المكان أمام مارتن.. فراح روبها الرمادي يلوح برشاقة وفاح عطرها في الهواء.

ـ تعرف كل شيء عن زواجي الأول وعن التعاسة التي عانيت منها.. ثم التقيتك فكان لقاؤنا الرد على دعواتنا.. كنا في غاية السعادة.. أليس كذلك؟

قال دون أن يوافق أو ينكر:

ـ اطرقي الموضوع مباشرة يا كارولين.

فتشت العينان التركوازيتان وجهه:

ـ لقد تغيرت حبيبي.. أصبحت قاسياً وصعباً.. هل أنا من فعل بك هذا؟ أعتقد أنني فعلت.. أمامي الكثير لأعتذر عنه.. على أي حال، يجب أن تتذكر أنني كنت قلقة على حملي إذ خشيت أن يقف الطفل بيننا ليفسد ما هو كامل.. وبدا لي حين ولدت طفلتنا أن هذا ما حدث فعلاً.. لقد تغيرت.. كنت غارقاً في عملك، غائباً معظم الوقت.. مع أنني وثقت بك مارتن، ولا تظننّ لحظة أنني لم أثق بك.. ولكنني كنت أشتاق إليك.. فعندما كنت تعود إلى البيت كانت ثيكي تأخذ كل وقتك الذي كنت تقضيه معي.

ـ ثيكي ابنتنا كارولين.. أحببتها وأردت أن أكون معها.. ولكن هذا

لم يعن قطّ أن حبي قلّ عما كان.

أحنت رأسها:

ـ أعتقد هذا.. لكنني شعرت بأنني غير سعيدة، وبأن الأمور لم تعد كما كانت.. وليس ذلك فحسب بل كنت أتساءل من تحب أكثر: أنا أم عملك.. أنا أم ابنتك.

قال بصوت هادىء بشكل خطير: «هي ابنتنا كارولين».

رفعت المرأة رأسها فتجمع شعرها الأسود الحريري وراء عنقها النحيلة:

ـ ما حدث كان حتمياً على ما أعتقد. كنت بحاجة إلى الحب.. وكنت وحيدة بدونك..

ـ تتكلمين وكأنني أنا من هجرتك لا أنت. تعرفين أنني أعطيتك من وقتي أكبر قدر ممكن، أما أمر عملي فنناقشناه مراراً.. ولم يكن وجودي في عملي يعني أنني توقفت عن حبك.

ردت بوقار لا شك فيه: شعرت بأنك لم تعد تحبني.

شتم شتيمة وتقدم ليقف قرب المدفئة قائلاً: تابعي.

ـ ذهبت مع ثيكي إلى الكاريبي لقضاء أسبوعين. وفي اليوم الأول على وصولي إلى هناك التقيت كونراد الذي أطاح بي عن قدميّ مارتن.. كنت أنت قد أصبحت جاداً كثيراً.. وكان هو مرحاً نشيطاً يملك وقتاً كبيراً ليقضيه معي.. ولأنه كان مضطراً للعودة إلى أميركا بعد أسبوع اقترح أن نرافقه فوافقت. وكان ذلك ترتيباً مؤقتاً، عطلة كنت بحاجة إليها.. ظننت أن من الجيد لك أن تعرف أن الرجال ما يزالون يجدونني جذابة.

ـ لم أكن أعمى..

ـ سافرنا بالمركب إلى جزيرة أخرى.. ثم ركبنا طائرة خاصة إلى هنا.

ـ لتغطية آثارك.

قالت فجأة بصوت عنيف:

ـ أردت أن أخيفك! اعتبرتني في ذاك الوقت كأمر مسلّم به، وأردت تغيير هذا الواقع.

تعاظم غضب مارتن.. فأمسك ذراعها وقال بفظاظة:

ـ تصّرين على اتهامي بأنني النذل الذي دفعك إلى ما فعلت.. وتبررين تصرفاتك..

مالت إليه برشاقة ورقّة.. أما ساري فتسمرت في مكانها وراحت تراقبهما مع أنها تعلم أنهما نسيا وجودها بسبب انغماسهما بمعركتهما الخاصة، وكان في كلمات كارولين التالية استفزاز جريء.

ـ أنت تنظر إلي الآن على الأقل وكأنك تعرف أنني موجودة.. فتذكر كيف كان الأمر مارتن! لم تنس.. أليس كذلك؟

ـ أذكر.. لكن ذلك كان منذ أربع سنوات.

ـ بإمكاننا أن نكون سعيدين مرة أخرى.

ـ تقصدين الآن بعدما مات كون؟

ـ لا تكن قاسياً!

ـ ماذا حدث؟ ألم يترك لك شيئاً في وصيته؟

إنه أول صدع حقيقي في رباطة جأشها إذ تمتمت:

ـ لا.. أورث زوجته كل شيء.. شعر بأنه قام بالصواب فهي أكبر مني بكثير.

ـ هكذا جاء دور البرقية.. فأنت مضطرة للخروج من هنا بسرعة.

ـ إنك تعطي أسوأ تفسير لكل هذا مارتن.. أرجوك.. امنحني فرصة للدفاع عن نفسي.. أعرف أنني ارتكبت غلطة فادحة منذ أربع سنوات.. كان يجب أن أتصل بك فيما بعد.. ولكن عندما رأيت صحف الجزيرة وعرفت أنك تبحث عني خفت.. لكنني الآن أكبر سناً وأكثر حكمة.

تهدج صوتها: أنت لا تساعدني كثيراً.. ألبس كذلك؟ ما أقوله بسيط جداً.. أريد العودة إليك مارتن.

انقبض قلب ساري.. كيف لرجل أن يقاوم مثل هذا التوسل؟ فما

بالك بمارتن؟ الذي لم يخف يوماً حبه لكارولين، ووجدت عينيها تتجهان إليه.. كان ينظر إلى الأرض وأصابعه مشدودة على رف المدفأة.. ثم قال بصوت منخفض:

ـ لقد فات الأوان كارولين.

ـ لا، لم يفُت الأوان.. تعلمت درسي في الأشهر الأخيرة.. تعلمت قيمة ما كنت أملكه يوماً معك.. وقيمة ما رميته بلا اكتراث ولكنني أعد ألا أرميه بعد الآن.

ـ ربما.. لكنك تنسين أمراً كارولين.. أمضيت أربع سنوات بدونك.. ومع ذلك تفترضين أنني لم أعقد التزامات أخرى في هذا الوقت.

التفتت عينا كارولين الجامدتين كالزجاج إلى ساري الجالسة بهدوء على ذراع المقعد: ماذا تعني؟

ـ ربما لا أريد أن تعودي.

ـ لا أستطيع تصديق هذا.. لا يمكنك إنكار الماضي، أو التظاهر بأنه لم يحدث.. أنا زوجتك أم طفلتك.

ـ أنت بالتأكيد أم طفلتي التي أريد استرجاعها كارولين، ولكنك لست زوجتي.

شحبت الوجنتان الجميلتان.. فبدت كارولين فجأة أكبر سناً بكثير.

ـ ماذا تعني؟ أنا زوجتك بالتأكيد!

ـ لقد طلقتك منذ سنة.

ـ لا يمكن هذا!

ـ يمكن.. نعم طلقتك.. انتظرت ثلاث سنوات وضعت الإعلانات المناسبة في صحف متعددة، وأخبرت القاضي كيف حاولت ملاحقة أثرك يوم اختفيت وحصلت على الطلاق.

صاحت بصوت يشبه صوت السوط: «لماذا؟»

ـ التقيت صدفة رجلاً اسمه دانيد بلايز.. أتذكرينه؟ صديق زوجك

الأول؟

بدا واضحاً من خلال وجه كارولين أنها تذكره.

ـ أخبرني عنك وعن ذلك الزواج بضعة أخبار نسيت أن تقوليها لي أو تعمدت ألا تقوليها، فوجدت عندئذ أنني كنت ساذجاً وأبله.. لقد وثقت بك كارولين.. وصدقت كل كلمة قلتها لي.

ـ دايفد كاذب! إنه يكرهني.. أراد أن أهرب معه لكنني رفضت.. ولهذا كرهني.

ـ لديك رد على كل شيء..

اجتاز المسافة الفاصلة بينهما بخطوتين. كان وجهه مشدوداً بمزيج من المشاعر التي لم تستطع ساري فهمها ثم رأته يقترب من كارولين وينظر إليها بقسوة.

انطلقت من حنجرة ساري آهة مخنوقة ووجدت أنها غير قادرة على مراقبتهما أو حتى على البقاء في الغرفة ذاتها.. فوقفت، ونظرت إلى ما حولها بذعر علها تجد طريقاً للهرب.. هناك بابان زجاجيان يفضيان إلى الشرفة في الخارج.. فتحت الباب وخرجت. وفي الخارج ضغطت الحرارة عليها وكأنها قوة حية.. ولكنها لم تكن تريد سوى الابتعاد عن الشخصين الموجودين في غرفة الجلوس.. وبدأت تركض في ممر بين الأشجار.

كان العشب تحت قدميها أخضر طرياً فتوقفت لحظة لتخلع حذاءها العالي الكعبين الذي حملته في يدها وهي تحني رأسها تحت شجرة صنوبر وتتابع الطريق بين الأشجار حتى خرجت من شق آخر في الغابة الكثيفة. وهناك أبطأت المسير.. فقد رأت سقيفة لعب لطفل مزينة بشكل ساحر، بابها الخلفي مفتوح على مسكبة زنبق بري تحيط ببركة مليئة بالزنابق المائية.. على حافة البركة وجدت فتاة صغيرة جالسة ترمي الحجارة إلى الماء ساهمة.

رفعت الصغيرة رأسها حالما سمعت وقع خطى ساري التي توقفت

مسمرة مكانها. إنها ابنة مارتن بدون ريب، فتحت الشعر البني الحريري المرتب بدقة في لفائف مجعدة، عينان رماديتان.

قالت الطفلة بأدب:

ـ لماذا تركضين؟ الطقس حار على الركض.

اقتربت ساري لتجلس على مقعد خشبي أبيض على حافة البركة.. وقالت:

ـ أنت على حق.. أعتقد أنني أردت الابتعاد عن ذلك المنزل.

ـ وأنا كذلك أكره المنزل.. ما اسمك؟

ـ ساري.. ساري آلرتون.. وأنت ثيكي.

ـ هل أتيت إلى هنا مع أبي؟

ـ أجل.. هذا صحيح.

ـ أخبرتني أمي بقدومه وطلبت مني ملازمة هذا المكان حتى تستدعيني.

ابتسمت ساري: «لكن والدك متلهف لرؤيتك».

كانت ثيكي منشغلة بتحريك المياه بعصا: كيف شكله؟

مالت ساري إلى الأمام:

ـ ستحبينه ثيكي.. إنه طويل ووسيم ويحب ركوب الخيل، و..

ـ وهل سيعلمني ركوب الخيل؟ أم تراه مشغولاً طوال الوقت؟ كان كون وأمي مشغولين دائماً.

ـ بالتأكيد سيعلمك.

يبدو أن ثيكي تفترض أنها ستعيش مع مارتن لكن هل هذا صحيح؟ وماذا عن كارولين؟

اتسعت عينا ثيكي: «هل هذا هو»؟

وقفت ساري تنادي: من هنا!

ووقفت ثيكي أيضاً وعيناها على وسعهما. أمسكت ساري بيد الطفلة:

ـ سيكون كل شيء على ما يرام.. سترين.

دخل مارتن من الشق عينه بين الأشجار فتردد عندما رأى ساري والطفلة قرب حافة البركة. . دنا منهما ثم ركع على ركبة واحدة أمام ابنته:

ـ مرحباً ڤيكي.

اشتدت الأصابع الصغيرة على يد ساري: مرحباً.

هز رأسه: أنت لا تذكرينني. . حين تعلمت المشي كنت تركضين نحوي على العشب لتمسكي ركبتي. . ثم كنت ألتقطك لأدور بك في الهواء فوق رأسي.

بدا العجب على الفتاة: «كنت صغيرة جداً يومذاك إذن».

ـ أقل من سنتين. . اشتريت لك مرة بالوناً كبيراً وربطته في أسفل سريرك، وقد ظلّ هناك فترة طويلة.

تغضّن جبين ڤيكي:

ـ كان أحمر اللون. . أليس كذلك؟

ضحك مارتن: هذا صحيح. . صحيح! أحمر براق!

وكأنما لم يستطع منع نفسه فجمع ابنته بين ذراعيه وعانقها. . سألت ڤيكي بصوت مختنق لأن فمها مضغوط على قميصه:

ـ هل ستعلمني ركوب الخيل؟

ـ أحب هذا. . وسنشتري لك جواداً صغيراً، فجوادي كبير عليك. . أتريدين مرافقتي لتعيشي معي ڤيكي؟

ردت باختصار: «أجل».

ـ لكنني أعيش في مكان بعيد جداً من هنا.

ـ لا يهمني. . فأنا أكره هذا المنزل.

قال بحذر: لن تعيش أمك معنا. . أظنها قررت البقاء هنا حيث أصدقاؤها.

ـ أتشتري لي مهراً بني اللون؟

ـ ڤيكي، هل تفهمين ما أقول؟ ستسافرين معي إلى كندا. . وتتركين أمك هنا.

قالت ڤيكي:

ـ لا يمكنها ترك أصدقائها الكثر. . لا بأس بسفري فهي غائبة عن المنزل دوماً. . متى نذهب؟

رفرف مارتن عينيه. . فهو لا يصدق ما تسمعه أذناه. لقد توقع دموعاً وعاصفة احتجاج، ولكن ڤيكي رأت أمها منذ زمن بعيد على حقيقتها. . ولن تتأخر الفتاة كثيراً في أن تركز كل حبها وتعلقها على أبيها. . لكن مارتن كان يتكلم:

ـ . . . ساري يجب أن تعود إلى الوطن غداً. . لكنني مضطر للبقاء بضعة أيام لأقوم بترتيبات معينة.

حمل ڤيكي وضمها بين ذراعيه:

ـ ساري. . هل تصحبين ڤيكي معك. . يمكنها استخدام تذكرتي، أما أنا فسأشتري أخرى. . أنا بحاجة إلى يومين أو ثلاثة لإنهاء بعض الأمور القانونية وأفضل ألا تتورط ڤيكي فيها.

ماذا تقول؟ ليس لديها خيار. . مع أنها تكره فكرة العودة بدونه. . وتكره أكثر فكرة بقائه هنا مع كارولين.

ـ أجل. . بالتأكيد. . بإمكانها البقاء معي عند جيرالد، لأخي صبيان ڤيكي، أحدهما في السابعة والثاني في العاشرة وهما يعيشان في مزرعة فيها بقر وكلب وقطط.

اتسعت العينان الرماديتان الشبيهتان بعينيّ مارتن ابتهاجاً:

ـ لم يسبق أن زُرت مزرعة كهذه.

بقي الثلاثة قرابة الساعة قرب البركة المليئة بالزنبق المائي. . كانت ساري تكيف نفسها بطريقة معينة لتسمح لمارتن وابنته بأن يتعارفا. ربما لم تحب مارتن قطُ كما أحبته الآن وهي ترى حنانه وحبه لابنته. . ولكنها لم تستطع إلا أن تتساءل إن كانت ستتاح لها تلك السعادة التي لا تستطيع

تخيل مقدارها عندما تهبه طفلاً. . اقتادتها مثل هذه الفكرة إلى جدار

مسدود.. لقد قال مارتن إن كارولين لن تعيش معه.. لكن كارولين ليست ممن يستسلمون بسهولة.

* * *

٩ ـ عاد غريباً

ثبت لساري أن كارولين لا تستسلم بسهولة. في ذلك اليوم ذهبوا ثلاثتهم هي ومارتن وڤيكي إلى مطعم صغير يقع في بلدة «ستوني كريك» لتناول الغداء أما الفكرة فكانت فكرة ڤيكي التي قالت:

ـ لا تسمح لي أمي بالمجيء إلى هنا أبداً.

ضحك مارتن لساري ضحكة غير معقدة وكأنها موجهة لأخته..

قال: أتعلم لعبة الأبوة هذه.. لسوء الحظ ثمة مطاعم كثيرة كهذا في جزيرة «برنس ادوارد» كذلك.

بعد الطعام عادوا إلى «بريتي رانش» وهناك اختفى مارتن مع ابنته. أما ساري فراحت تنتظر في غرفة الجلوس جالسة على أريكة منجدة، تقلب بكسل صفحات مجلة.. ما أشد ما ستكون مسرورة بمغادرة هذا المكان! الآن فهمت لماذا تكره ڤيكي هذا المنزل.. وفكرت كيف كان يبدو كون..

ـ أنت هنا إذن.. كنت أبحث عنك.

انتفضت ساري لأنها لم تشعر باقتراب المرأة الأخرى منها. سوّت جلستها وراحت تتجنب أي تعليق مؤدب كانت ستقوله.

لقد غيرت كارولين ملابسها وارتدت فستاناً أحمر يناسب هذه الفترة من النهار..

ـ ألن تسألي لماذا أردت رؤيتك؟

ردت ساري بلطف: «لماذا أسأل ما دمت ستقولين لي مرادك في كل

الأحوال؟»

نظرت إليها نظرة حادة كحد السيف:

ـ الأمر في غاية البساطة.. تعتقدين أنك ربحت.. فأنت عائدة غداً مع ڤيكي على أن يلحق بك مارتن بعد يومين.

ـ أعتقد أن هذا هو الترتيب.

ضاقت العينان التركوازيتان البراقتان:

ـ لا تكوني متأكدة هكذا! ما استدعيت مارتن إلى هنا إلا لأنني أريد استعادته.. وهذا لم يتغير.

ـ لو كنت مكانك لما رغبت في رجل طلقني!

تحركت التنورة الحمراء بغضب:

ـ هناك شيء يدعى الزواج مرة أخرى.

ـ وهناك شيء يدعى الكرامة.. كما كنت أعتقد.

صاحت كارولين: «أريد استرجاعه!»

ـ لماذا؟ أرجو منك ألا تدعي أنك تحبينه فلن أصدقك.

ردت المرأة بصوت منخفض غاضب:

ـ حسناً.. سأكون صادقة معك، ويمكنني المخاطرة بهذا لأنني واثقة أنك لست من الطراز الذي سيجري إليه لنقل الأخبار.. وقد لا يصدقك على أي حال.. فهو يثق بي بشكل غريب.

ـ أظنه تغير كثيراً الآن.

ضحكت كارولين بسخرية:

ـ تحاولين إخافتي، ولكنك لن تنجحي. أعرف ما أريد، وسأحصل على ما أريد.. وأنا أريد مركز مارتن الاجتماعي وأريد ماله، وأريد ضمانة الزواج.

ـ أفهم هذا.. فما عدت صغيرة بالسن.. ومن المؤسف أن كون لم يترك لك بنساً واحداً.. ثم ظننت أنك ما زلت زوجة لمارتن، أليس كذلك؟

اشتدت الشفتان الحمراوان رقة، وللحظة لم يعد الوجه المتبرج بفن جميلاً أبداً.. لكن كارولين اختارت تجاهل استفزاز ساري:

ـ لدي سلاح قوي جداً.. سلاح لا تملكينه أنت.. أنا أم طفله.. وهو يريد الطفلة التي أريد البقاء معها.

عصرت أصابع باردة قلب ساري. ما قالته المرأة صحيح فهي فعلاً لا تملك سلاحاً يقارن بسلاحها، وهي كذلك في موقف حرج لأنها تحب مارتن وتهتم بما سيحدث له..

قالت بثبات:

ـ لا أظنك تدركين كم تغير مارتن منذ تركته، فلم يعد مدير مشروع أبحاث.. لقد أصبح أستاذاً لجزء من الوقت، وكاتباً، ويعيش على جزيرة تبعد أميالاً عن أقرب مدينة. نعم لديه منزل جميل ولكن جيرانه جميعاً من المزارعين وهم جميعاً لا يناسبون مزاجك.. كارولين.

ردت بثقة فائقة:

ـ أوه.. لن نبقى هناك طويلاً، بإمكانه استلام إدارة قسم الفيزياء في أية جامعة في البلاد. ثم أنا لا أريدك جارة قريبة مني.. فأنت تحبينه بشكل يثير الشفقة.

ضربة مباشرة.. رفعت ساري رأسها بكبرياء:

ـ أجل.. أحبه.. أحبه حباً كبيراً لذا لا أريد أن تكون له صلة بك كارولين.. فأنت لا تحبين سوى نفسك.. لقد غششته وخدعته، سلبته ابنته. والآن تريدين استغلاله.. أنت لا تريدينه لذاته أبداً!

ـ مؤثر جداً.. أنت واقعة في الحب من رأسك إلى أخمص قدميك.. أليس كذلك؟ لكن هذا لن ينفعك فأنت ستقاتلين بشرف وبصدق بعيداً عن الممنوعات.. أما أنا فمستعدة لاستخدام أي سلاح أستطيعه، لذا سأربح المعركة.

اكتفت ساري من هذا الحديث، فوقفت.. كانت الشمس تتسلل من النافذة فتحدّد خطوط جسدها النحيل وشعرها الكستنائي..

قالت: أظنك تتجاهلين واقعاً مهماً.

سألت بصوت حاد: «ما هو؟»

ـ ليس ما هو، بل من هو.. مارتن.. إنه رجل ناضج كارولين، ورجل طيب، صادق، حساس، ولديه قدرة على الحب عظيمة.. منذ أربع سنوات دمرت له حياته.. والآن سيكون عليه اتخاذ قرار ثان. ترى هل يقدر على ركوب تلك المخاطرة مرة أخرى.. إنه قراره هو، لا قرارك أو قراري، عليه أن يختار بيننا.

رأت أنها صرعت كارولين وأفقدتها توازنها، فأردفت بكبرياء:

ـ لن أكذب أو أخادع أما أنت فافعلي ما تريدين. وإن حدث أن اختارك، فسأكون إذن مخطئة بشأنه وإن اختارني أصبحت أسعد امرأة على وجه الأرض.

تناهى عن الدرج المستدير في الردهة وقع أقدام، وصوت الطفلة مختلطاً بصوت مارتن العميق الأجش.. تكلمت كارولين بصوت هامس لئلا يسمعها أحد.

ـ سترافقينه الآن ولكنك في الغد سترحلين وسأبقى أنا مع مارتن، فلا تعدي نفسك بعودته إليك.

في العينين التركوازيتين ثقة هائلة بالنفس تكفي لهز إيمان ساري بكلماتها..

نادت: «نحن هنا.. هل أنت جاهزة ڤيكي؟»

كانت الفتاة تحمل دباً كبيراً تحت ذراعها، وقالت بإثارة:

ـ سنخرج إلى العشاء.

نقل مارتن نظره من امرأة إلى أخرى:

ـ من الأفضل أن تودعي أمك ڤيكي.

غاصت كارولين في تنورتها الواسعة على ركبة واحدة، وعقدت ذراعيها حول ابنتها تقبلها..

ـ وداعاً ڤيكي.. كوني فتاة طيبة.. أراك بعد وقت قصير.

وقفت ڤيكي كالعصا وبدا وجهها خالياً من التعابير، وحالما تمكنت حررت جسدها بكل وقار من ذراعي أمها.

قال مارتن بجفاء:

ـ أراك غداً كارولين.. لماذا لا نلتقي في مكتب المحامي في الساعة الثانية؟

ابتسمت بسمة مشرقة وكأنه اقترح موعداً رومانسياً لا موعداً مع المحامي.. قالت وهي لا تتمالك نفسها: «هذا رائع».

ثم أردفت:

ـ ما زلت تستخدم عطر ما بعد الحلاقة ذاته أليس كذلك حبيبي؟ إنه يعيد لي الذكريات.. أتطلع شوقاً لرؤيتك.

ارتدت ساري خائفة، فكيف يمكنها محاربة هذا المزيج من الجمال والثقة بالنفس والخداع؟ إنها فتاة عادية.. نعم لقد قال لها مارتن إنها جميلة ولكنه كان تحت ظروف معينة. ولكنه في مناسبتين منفصلتين، قال لها إن كارولين هي أجمل امرأة رأتها عيناه.

وجهت كارولين كلامها إليها:

ـ وداعاً ساري.. سرني التعرف إليك. أتمنى لك رحلة موفقة.

وكانت ابتسامتها مذهلة.

ستكون ساري غبية إن تجاوبت مع هذا الكلام المهذب غير الصادق..

تنفست أخيراً الصعداء فقد قطعوا الردهة الواسعة التي تردد الصدى، وخرجوا إلى أشعة الشمس مرة أخرى.. وكانت ڤيكي تلتصق بوالدها، وكأنما تخشى أن يلغي رحيلها في آخر لحظة. أجلستها ساري في المقعد الأمامي بينها وبين مارتن، ثم انطلقوا.. يقود مارتن السيارة بين أشجار الصنوبر العالية. وكأنما أمضى كل لحظة من السنوات الأربع الماضية مع ابنته، بدأ يسألها بشكل عفوي عن عملها المدرسي ثم عن روتينها اليومي.. برزت من الردود غير اللبقة صورة طفلة متروكة لتفعل ما

تشاء.. فسرعان ما بدا من الواضح أن أولويات كون وكارولين على حد سواء، كان النشاط الاجتماعي مختلطاً بسفر دائم تقريباً.. وتعجبت ساري لأن هذا لم يؤثر في طبيعة الطفلة الطيبة.. وما بدا واضحاً كذلك، أن القليل القليل من الدلال كان من نصيب ڤيكي.

عندما وصلوا إلى الفندق اختارت الصغيرة البقاء مع والدها وقالت:

ـ لأنني سأبقى مع ساري ليلة الغد.. أليس كذلك؟

جعلته يقرأ لها لائحة الطعام كلها وراحت تصغي باهتمام شديد، ثم اختارت مزيجاً غير عادي من الطعام أكلته باستمتاع وبعد العشاء خرجوا جميعاً ليتمشوا. ومن هناك توجهوا إلى غرفتيهم، فاستحمت ساري وخرجت فلمّا رأت الصغيرة شعرت بقلبها يذوب حباً نظراً لشدة شبهها بمارتن.

ـ جاهزة دميتي؟ سنذهب عبر الممر إلى غرفة أبيك.

قرعنا باب مارتن فأدخلهما.. كانت الغرفة شبيهة بغرفة ساري، فيها سرير ثقال موضوع قرب الجدار، ولعبة الدب ملقاة على الوسادة.. ضمته ڤيكي إليها ثم تثاءبت:

ـ تصبحين على خير ساري.. تصبح على خير دادي.

مر على وجه مارتن إحساس لم تفهم كنهه.. وانحنى يقبل ابنته:

ـ نامي جيداً عزيزتي.. سأرافق ساري إلى غرفتها ثم أعود.. هل يضايقك النور إن جلست في الزاوية أقرأ؟

هزت الصغيرة رأسها فأردف:

ـ حسناً.. لن أغيب طويلاً.

رافق مارتن ساري حتى غرفتها. عندما فتحت الباب ارتدت تواجهه فأدخلها إلى الغرفة وأغلق الباب خلفه:

ـ حسناً.. ساري.. لا أصدق بعد كل ذلك الوقت أن ابنتي معي في الغرفة المجاورة وأنها مسافرة معك غداً إلى الوطن.. وليتني كنت مسافراً معكما.

ـ وأنا كذلك.

ـ يجب أن أبقى هنا ساري، أريد أن تكون ڤيكي في حضانتي قانونياً.. وأريد أن يتم هذا بشكله الصحيح. قد أغيب ثلاثة أو أربعة أيام.. أعرف أنها ستكون بين أيد أمينة.. مع أنني ما زلت غير قادر على أن أصدق كيف تركت أمها بكل هدوء.

ـ كانت أمها غريبة عنها على ما يبدو.

بدا بدلك جبينه:

ـ ربما أنت على حق.

سألت بلهفة: «أتعاني من صداع؟»

ـ بل أنا مصدوم.. فآخر من توقعت رؤيته عندما وطئت ذاك المنزل هي كارولين.

قالت بصوت أعلى من الهمس بقليل: «أجل».

ـ شعرت بأن الماضي يعود ثانية.. كانت ترتدي فستاناً رمادياً يشبه ذلك الذي رأيتها فيه أول مرة..

ـ لكن ذلك حدث منذ ثماني سنوات مارتن.. والكثير الكثير حدث منذ ذلك الوقت.

ـ أجل.. أنت على حق طبعاً.. آسف ساري، أنا لا أتكلم كلاماً منطقياً.. أليس كذلك؟ كان يوماً مرهقاً لذا لن أطيل السهر، بل سأحذو حذو ڤيكي وأنام.

وقفت ساري جامدة تتوق أن يذكر المزيد، لكن كل ما قاله:

ـ أرجو أن تنامي نوماً هنيئاً ساري.. لماذا لا نلتقي في الساعة الثامنة لتناول الفطور؟

ردت بإشراق:

ـ عظيم.. تصبح على خير مارتن.

لن تبكي.. لن تبكي..

ـ تصبحين على خير..

ثم رحل أما هي فأغلقت الباب ثم بدأت تنزع ملابسها لترتدي ملابس النوم. ولكن عندما وضعت رأسها على الوسادة هاجمها عدوان كبيران: الأفكار والمشاعر.

دارت الصور مراراً وتكراراً: مارتن، كارولين، ڤيكي وهي، وكلها صور متشابكة غير واضحة. مع ذلك، مع مرور الدقائق البطيئة.. أخذ يبدو لساري أنها من بين الأربعة، هي الغريبة.. هي التي لا تنتمي إلى الدائرة.. أما الثلاثة الآخرون فمرتبطون معاً بالماضي وبروابط الدم.. لكن هذا لا ينطبق عليها.. إنها المتطفلة الجديدة على مسرح الأحداث.. الصديقة.. بنت الجيران.. ولكنها ليست المرأة التي يحبها مارتن..

نامت أخيراً نوماً متقطعاً مليئاً بالكوابيس لذا لم تَذُق طعم النوم الصحيح إلا عند الفجر.. استمر القرع بعض الوقت على بابها حتى استيقظت متعبة تجر قدميها جراً لتطفو في عالم رمادي النور، يقرع فيه المطر قطراته على زجاج النافذة.. وقفت لترتدي روبها ودنت من الباب. كان مارتن وڤيكي مرتديين ثيابهما الكاملة وواقفين في الممر..

تمتمت: «كم الساعة؟»

ـ الثامنة والنصف.

فركت عينيها.

ـ يا إلهي.. من الأفضل أن أحضّر نفسي.. أمهلاني عشر دقائق.. الأفضل أن تذهبا إلى غرفة الطعام.

كررت بدون أن تنظر إلى مارتن: «عشر دقائق فقط».

وأقفلت الباب بسرعة.

مضى حوالى عشرون دقيقة قبل أن تقطع ساري الردهة الكبيرة إلى قاعة الطعام. كانت قد استحمت وتبرجت وسرحت شعرها وارتدت البذلة الجذابة التي سافرت فيها إلى هنا، وتزيّت بالقرطين الذهبيين. حينما مرت بالردهة نظر إليها جماعة من الرجال بإعجاب.. وابتسم لها كبير السقاة ابتسامة إعجاب وهذا ما اجترح العجائب لروحها المعنوية.. كان على

وجهها ابتسامة مشرقة وهي تقول بحبور:

ـ صباح الخير.. تأخرت فقط عشرون دقيقة.

فتح مارتن فمه فسبقته:

ـ كيف حالك ڤيكي؟ هل نمت نوماً هنيئاً؟

حافظت ساري خلال وجبة الفطور على جو من المرح ولكنها في أعماقها تعرف أن الفراق صعب عليها.. هكذا تكلمت وضحكت ومازحت حتى أصبحت أخيراً في المطار، والحمد لله، تنتظر عند البوابة لصعود الطائرة. كانت ڤيكي واقفة عند النافذة تضغط وجهها على الزجاج تراقب الطائرة الفضية تسير فوق المدرج.

قال مارتن بلهفة: «ساري.. ما الأمر؟»

ـ لا شيء.. ولا تقلق على ڤيكي.. سأعتني بها جيداً.

ـ لست قلقاً على ڤيكي، لأنني أعرف أنها بين أيدٍ أمينة.

ثم تابع يقول:

ـ أنت مختلفة هذا الصباح.. أشعر بأنني لا أستطيع الاقتراب منك.. فما بالك؟

كانت ابتسامتها زائفة بشكل واضح.

ـ يتراءى لك.

استدعيت رحلتهما عبر المذياع، فقالت ساري متنفّسة الصعداء بشكل ظاهر:

ـ يجب أن تذهب مارتن.

هزها: أكره أن أتركك هكذا!! اسمعي سأعود بعد ثلاثة أو أربعة أيام على الأكثر.. وسأتصل بك غداً لأبلغك بما استجد.

عادت ڤيكي راكضة نحوهما وأمسكت يد ساري:

ـ حان وقت الذهاب: وداعاً دادي!

رفع الصغيرة بين ذراعيه يقبلها بحب:

ـ وداعاً حبي.. كوني فتاة طيبة مع ساري، سأراك بعد بضعة أيام.

ثم أنزلها. . ربما لأنه شاهد ساري بطرف عينه ترتدّ مبتعدة.

ـ تعالي إلى هنا ساري.

ـ مارتن. . أنا. .

ـ تعالي إلى هنا.

استحال عليها مجادلته بسبب هذه النبرة في صوته. . دنت منه خطوة فارتجفت ضعفاً. . كانت عيناها بارقتين بدموع لم تذرفها. فقال يطمئنها:

ـ ساري. . سوف أعود قريباً، أعدك بذلك

ـ يجب أن نذهب. . تعالي ڤيكي.

أسرعت شبه راكضة إلى البوابة، تحمل جوازي السفر اللذين عرضتهما على الموظف المختص. وكانت ڤيكي تلوّح لأبيها من فوق كتفها. . لكن ساري لم تنظر إلى الخلف. . وما إن سارت في الممر المكسو سجاداً إلى باب الطائرة حتى بدأت تسترخي.

جاءها سؤال ڤيكي العفوي: لماذا تبكين ساري؟

أنقذها السؤال توازنها.

ـ أنا لا. .

ثم ابتسمت للصغيرة ابتسامة دامعة:

ـ بلى. . أنا أبكي. أعتقد أنني أكره الوداع ڤيكي. . أمر سخيف. . أليس كذلك؟

قالت ڤيكي بلهجة آملة: «ربما ستتزوجين بدادي».

همست ساري برعب:

ـ لا يجب أن تفكري هكذا!

ـ ولم لا؟

ـ هذا لأن. . لا أستطيع التفسير ڤيكي. أنا ووالدك صديقان حميمان. هذا كل شيء. هاك. . هذان مقعدانا. . اجلسي قرب النافذة لتشاهدي ما في الخارج. . دعيني أربط حزام مقعدك.

مضى عليهما دقيقتان حتى استقرتا. . ربطت ساري حزام مقعدها

وأسندت رأسها إلى الوراء، تغمض عينيها راغبة في أن تقلع الطائرة لتضع أميالاً وأميالاً ما بينها وبين مارتن.

* * *

كان يوماً طويلاً. . من حسن الحظ أن ڤيكي نامت في الطائرة ما بين بوسطن وهاليڤاكس. . ومن حسن الحظ كذلك أنهما مرتا بكل الإجراءات المعتادة بدون تأخير. . وكان جيرالد وابناه في مطار «شارلوتاون» لملاقاتهما. . فقد اتصلت ساري به من هاليفاكس. . عندما شاهدت ڤيكي الصبيين أصيبت بالخرس خجلاً. . وهذا أبرز ما كانت عليه حياتها التي أمضتها فقط مع الكبار. . قال جيرالد بشيء من العفوية لم تخدع ساري:

ـ سأضطر إلى العودة إلى المطار غداً. . ستصل لي آن في رحلة بعد الظهر.

ضمته بقوة: أوه. . جيرالد. . أنا مسرورة كثيراً. . ستصل قبل الموعد الذي توقعت؟

ـ أجل. . الواضح أنها تقدمت بشكل مذهل في الأسبوع الماضي.

ـ يا إلهي. . أنا مسرورة لأنني عدت اليوم. . فهذا سيمهلني الوقت لتحضير كل شيء.

طفقت تحدث الصبيين واصفة لهما بعض الأشياء التي شاهدتها في كارولينا الشمالية وراحت تجذب بالتدريج ڤيكي إلى الحديث، ولكن ما تعجبت منه أن روبي تصرف وكأنه الحامي عن الصغيرة. . وما إن وصلوا إلى المزرعة حتى كان خجل ڤيكي كله قد تلاشى.

بعد نوم الأولاد أعد جيرالد إبريق شاي حملته ساري إلى غرفة الجلوس حيث خلعت حذاءها وتنهدت.

ـ ما أحلى العودة إلى البيت جيرالد! شكراً لملاقاتي في المطار.

ـ أهلاً بك. . لكنك تبدين متعبة أختاه. . أخبريني عما جرى هناك. . لماذا لم يأت مارتن معكما؟

انتقت كلماتها انتقاء لتخبره تفاصيل حذرة عن الأيام الثلاثة المنصرمة.. وصفت له «بريتي رانش» ثم أخبرته أن كارولين كانت بانتظارهما هناك.

- يا الله! من أرسل البرقية إذن؟

- هي.

خلا صوتها من أية مشاعر وهي تكرر ما برّرت به كارولين تصرفها.. فلما انتهت أطلق جيرالد صفيراً طويلاً منخفضاً.

- إنها سيدة يجب تجنبها.. كيف تبدو؟

ردت بيؤس: مذهلة.. مذهلة.. لديها عينان زرقاوان كبيرتان ولو قالت لك إن الأسود أبيض لصدقتها.

- همم.. لهذا بقي مارتن هناك؟

- لقد بقي ليحصل على حضانة ڤيكي القانونية.. فسيلتقي هو وكارولين المحامي بعد ظهر اليوم، لكنها تريد استرجاعه جيرالد.. هذا ما قالته بالحرف..

ارتجف صوتها: أخشى أن يجلبها إلى هنا لتعيش معه.

قال جيرالد بلطف: وأنت واقعة في حبه رأساً على عقب؟

- أهذا واضح إلى هذا الحد؟

- أعرفك جيداً أختاه.. وأعتقد أن هذا أمر ما كان بالإمكان تجنبه، فمنذ رأيته لاحظت أنه شخصية مختلفة عن ريكي.

- لكنه لا يحبني.

- لست واثقاً من هذا.

- جيرالد.. إنه لا يحبني! وأظنه ما يزال يحب كارولين رغم ما فعلت به.

- هذا غير ممكن.. هيا الآن ساري، أنت متعبة وتتخيلين أسوأ الأمور.. أعتقد أن من الأفضل لك أن تنامي. وغداً صباحاً ستجدين كل شيء مختلفاً.

- ربما أنت على حق.. أشعر بأنني أفضل لأنني أفضيت لك بما عندي.

- أنا على حق بالتأكيد.. والآن، هيا إلى النوم.

نامت ساري نوماً عميقاً، وفي اليوم التالي كانت مشغولة كثيراً فلم يتسنّ لها الوقت للتفكير في مارتن وكارولين.. نظفت البيت كله بسرعة، ثم حضرت عشاء مميزاً وقطفت زنبقاً برياً أحمر لتزيين المنزل.. كانت طوال اليوم تراقب ڤيكي بحذر وكلها لهفة لتتكيف الطفلة مع هذه البيئة الجديدة.. ولكن لم يكن هناك داع للقلق، فقد جال رويي بها في المخزن وصحبها إلى الحفرة الرملية، مرتدية ثياباً قديمة، جينزاً وتيشيرت، كبيرة عليها ولكن أنسب لها من الفستان الذي ليس معها غيره في حقيبتها، وأمضت ڤيكي معظم يومها في الخارج.. بعد الغداء سافر جيرالد إلى شارلوت تاون بالباص، لأنه سيعود مع لي آن بسيارة الإسعاف. وعاد الولدان من المدرسة، وخرجا ليلعبا مع ڤيكي وسرعان ما انضمت إليهم سوزي..

كان الوقت عشاءً حين ولجت سيارة الإسعاف إلى طريق المنزل الدّاخلية، وخرجت ساري تمسح يديها بميدعتها، تلحق بها ڤيكي، ثم هرع الولدان راكضين من التلة. ولكنهما شعرا فجأة بالخجل من أمهما فتراجعا.

قفز السائق إلى الخارج، واستدار إلى الباب الخلفي.. بمساعدة جيرالد، أنزلا لي آن إلى كرسي متحرك.. ثم دفعها جيرالد بحذر إلى المنزل، أما سيارة الإسعاف فتراجعت.. كانت لي آن جالسة مستقيمة وشمس بعد الظهر تلمع فوق شعرها البني القاتم، وعلى وجهها ضعف وتورد من فرط الإثارة.. وأوقف جيرالد الكرسي أمام الولدين.

تبادلت لي آن وساري نظرة تفاهم سريعة قالت أشياء كثيرة بدون كلمات..

قالت لي آن بهدوء:

ـ لا تخافا من المقعد المتحرك. . أنا قادرة على السير، إنما ليس على أرض وعرة. . روبي لقد كبرت إنشين على الأقل! وبيت، ألم تفقد سناً آخر؟

ابتسم بيت ليظهر الفجوة بين أسنانه. فجأة ضحك الجميع وتجمع الولدان حول أمهما يضمانها.

ـ يا إلهي. . أقسمت ألا أبكي. . لكنها دموع السعادة. . روبي، ماذا فعلت لذقنك؟

ـ وقعت عن دراجتي.

دفع جيرالد الكرسي مجدداً نحو المنزل، فارتدت ساري وڤيكي قليلاً وشعرت ساري أنها عدد زائد على أفراد الأسرة. . من الآن وحتى موعد النوم، ستعيد لي آن تعارفها مع ولديها. . بعدئذ سنضيع مع زوجها في عالم خاص صمم فقط لاثنين، لا ثالث لهما.

لكنها كانت تبالغ. . فلقد تجمع الجميع في المطبخ عدا لي آن، يشاركون في تحضير وجبة الطعام. . في البداية مالت ڤيكي للوقوف جانباً. . تراقب متسعة العينين والولدان يتحركان جيئة وذهاباً مع أمهما. . لكن لم يمضِ وقت طويل حتى دخلت إلى دائرة العائلة وأصرت على الجلوس ما بين روبي وساري على المائدة الصنوبرية الكبيرة. بعد جلي الصحون، انضم الجميع ليتسامروا، وقال جيرالد أخيراً بحزم:

ـ أمكما متعبة.

اعترفت لي آن: أنا فعلاً متعبة. . لكن ما أجمل العودة إلى البيت. . لا يستطيع أحد أن يتصور. . الأفضل أن تذهبا لارتداء البيجامات. . وأنت كذلك ڤيكي. . ثم انزلوا إلى هنا لتتمنوا لي ليلة سعيدة.

فيما الأولاد الثلاثة يتسابقون إلى الدرج التفتت لي آن إلى ساري:

ـ إنها فتاة رائعة، وحلوة. ولكنها هادئة كثيراً. . ولا أظنها تعرف ماذا ستستنتج منا جميعاً؟

قالت ساري:

ـ هذه الفتاة لم تعرف قطُّ شيئاً عن معنى الأخذ والعطاء في حياة عائلية طبيعية.

ـ عندما ضممت الولدين رأيتها تراقبنا وكأنني أقوم بعمل غير عادي.

ـ أمها باردة الدم ومتسلطة ولا تهتم بسوى نفسها.

ـ فهمت. .

تورد وجه ساري التي أضافت بخنوع: لم تعجبني.

رن جرس الهاتف في الردهة فتصاعد صوت وقع أقدام تنزل الدرج. .

صاح روبي: «سأرد أنا!»

تسمّرت ساري في مكانها لأنها متأكدة من أن المتصل مارتن. سمعت روبي يقول:

ـ ڤيكي هنا. . ڤيكي هذا والدك.

أخذت ڤيكي تهذر بإثارة وهي تصف المزرعة والحيوانات وعودة لي آن، ثم راحت تخبره عما تناولوه من طعام. أما ساري فكانت متوترة وهذا التوتر ظهر في قسمات وجهها وهي تنتظر، فهي لا تستطيع التفكير إلا في الوقت الذي قضاه مع كارولين منذ آخر مرة رأته فيها. . كيف أثر فيه هذا؟

أخيراً أطلت ڤيكي رأسها من وراء الباب.

ـ دادي يريد مكالمتك ساري.

هبَّت واقفة وتوجهت إلى الهاتف الذي تمنت لو كان في مكان منزو. . تعرف من الخبرة أن كل كلمة تقال ستصل إلى مسامع من في المطبخ. .

تناولت السماعة وقالت بقلق: «آلو؟»

ـ ساري؟ ارفعي صوتك. . لا أسمعك.

أفقدها صوته الحاد الجاف توازنها: كيف حالك؟

قال بنفاد صبر:

ـ سأضطر إلى البقاء هنا أربعة أيام أخرى على الأقل. . اعترضتني بعض الإشكالات القانونية. . ولكنني لا أريد شرحها عبر الهاتف. . هل

ستكون ڤيكي على ما يرام؟

ـ أجل. . إنها على ما يرام. .

ـ أخبرتني ڤيكي أن لي آن عادت.

ـ أجل. . وصلت اليوم. . ما أروع أن تكون معنا مجدداً.

ـ يبدو أن ڤيكي مأخوذة بالعائلة كلها. . خاصة روبي. . سمعت منها الكثير عن روبي: قال هذا روبي وفعل ذاك. أما زلت على الخط؟ إنه اتصال رهيب. . أسمع ضجة كبيرة. . اسمعي ساري. . عندما أقدر على تحديد موعد نهائي لعودتي أتصل. . متى تعودين إلى عملك؟

ـ عطلتي تدوم أسبوعاً.

قال بصوت متجهم: «سأنهي ما بيدي قبل ذلك الوقت. أقدر لك فعلاً كل ما تفعلينه من أجلي ومن أجل ابنتي. . الطفلة أفضل حالاً عندكم، أنا مقتنع بهذا».

اكتفت ساري من هذا الحديث العادي.

قالت ببرود: الأفضل إنهاء المكالمة، فهذا وقت نوم الأولاد ولي آن متعبة.

ـ حسناً. . الهاتف قد يكون وسيلة اتصال محبطة. . توافقينني الرأي؟ اعتني بنفسك ساري وأعدك أن أكون في المنزل خلال هذا الأسبوع.

أ ادت أن تسأل، أما زال هنا منزلك؟ لكن قبل أن تستطيع، قطع الاتصال فجأة بطريقة جعلتها ترغب في البكاء. . ماذا يعني بقوله إشكالات قانونية؟ أم لعلها إشكالات عاطفية؟ الشخص الوحيد الذي لم يذكر اسمه كان كارولين. .

نادى جيرالد من المطبخ:

ـ هلا وضعت هؤلاء الثلاثة في الفراش أختاه؟

استجمعت شتات نفسها وأطلت من باب المطبخ فكان أول ما رأته جيرالد وهو يقف قرب كرسي لي آن المتحرك ويده على كتفها، ينظر إليها مبتسماً. كانت مجرد ابتسامة، لكن فيها سعادة حقيقية.

ابتسمت ساري: مستعدون يا أولاد؟ هيا، اصعدوا إلى أسرتكم!

وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير عندما التفت ذراعا ڤيكي حول عنق ساري وضمتها وهي تقول ناعسة:

ـ أحببت أم روبي. . وأعتقد أنّ عليك أن تكوني أمي.

ـ قد يكون لوالدك قول آخر في هذا ڤيكي. . نامي جيداً عزيزتي.

مع مضي الأيام كانت الطفلة تذكر ساري بأبيها. . ربما أن السبب رؤية العائلة التي اجتمع شملها. . في الجانب الإيجابي، كانت لي آن تستعيد قليلاً من قوتها كل يوم. . وكان جيرالد يخرج إلى عمله سعيداً فرحاً، أما ڤيكي فاستقرت في حياة المزرعة وكأنها ولدت هناك. ومهما حاولت ساري لم تستطع إلا أن تحب هذه الطفلة، لذاتها أولاً ولقرابتها بمارتن. . أما علاقتها مع الطفلة فكانت طبيعية. . وقد ظهرت في الطريقة التي تدس ڤيكي يدها فيها في يد ساري حين تخرجان لتتمشيا. . وكيف تقبلها قبلة المساء قبل النوم.

عندما اتصل مارتن للمرة الثانية، كانت ساري في الخارج على صهوة جوادها فلمّا وصلت أبلغتها لي آن أنه عائد في الأمسية القادمة. عمّ السرور قلب ڤيكي. . لكن ساري أصيبت بالذعر. . فهل ترافقه كارولين يا ترى؟

في اليوم المقرر أن يصل فيه أغرقت نفسها بنشاط مفرط من التنظيف والخبيز والكوي. . لم يكن جيرالد قد ذكر لها الموعد المحدد على وصول مارتن، ولم ترد أن تعرف. . فالساعات تمر ببطء كاف. . حتى تعدّ لها الدقائق. .

كانت الأسرة في غرفة الجلوس حين دخلت المرسيدس السوداء إلى الطريق الداخلية ثم ما هي إلا دقيقة حتى قُرع الباب. . سحبت ساري نفساً عميقاً ثم فتحت الباب.

وكأنما عقلها كان لشخص آخر فقد سجل سلسلة متعاقبة من المشاعر. . كان بمفرده. . واقفاً على بعد درجة واحدة منها. . مع ذلك بدا أطول منها. . وبدا متعباً جداً أيضاً.

ولأنها تنوي أن تبدو هادئة، سمعت نفسها تسأل: «أين كارولين؟»

- كارولين؟ ماذا تقصدين بحق الله؟

- هل هي في السيارة؟

- بحق الله! كل ما أعرفه أنها ما تزال في ذلك المكان الرهيب الهندسة في كارولينا الشمالية.. أتوقعت أن أجلبها معي؟

- أنا.. لم أعرف.. ماذا ستفعل.

- صدقيني.. هذا آخر ما قد أفعله.. أين ڤيكي؟

تذكرت حسن التصرف متأخرة، فتنحّت جانباً لتفسح له المجال.. وجاءت ڤيكي راكضة إلى المطبخ وكم بدت مختلفة عن الفتاة المنزمتة الخجول. شعرها مربوط إلى الخلف كذنب حصان، وترتدي ثياب بيت التي ضاقت عليه.

- مرحباً دادي!

وارتمت عليه حالما ركع.

ارتدت ساري عنهما وأفكارها تعذبها.. لم يصطحب كارولين.. هذا واضح.. ولا يريد أن يحضرها.. لكن هذه الراحة التي شعرت بها عندما سمعت منه هذا الخبر طغت عليها سحب اعتبارات أخرى.. لم يبدُ سعيداً، بل بدا مرهقاً وكأنه رجل وصل إلى آخر حدود طاقات صبره.. لقد وقع معه شيء في كارولينا الشمالية. ما هو هذا الشيء؟

جرته ڤيكي إلى غرفة الجلوس.. ولحقت ساري بهما ببطء.. كانت تقوي نفسها لهذا اللقاء طوال اليوم.. الآن انتهى.. ولم يحدث شيء يُذكر.

ظل هناك أكثر من ساعة.. استرخى خلالها بعض التوتر عن وجهه، أما ڤيكي فكانت تُظهر له مدى سعادتها برؤيته.

أخيراً قال: من الأفضل أن نذهب ڤيكي.. أغراضك موضبة؟

- إنها في غرفتي.. سأريك أين هي.

نزلا بعد بضع دقائق، مارتن يحمل الحقيبة وڤيكي تحمل دبها..

ودعا الجميع، ثم مشيا ترافقهما ساري حتى السيارة حيث احتضنتها ڤيكي بقوة:

- باي ساري.. أستطيع المجيء إلى هنا للزيارة.. أليس كذلك؟

قال مارتن: «بالتأكيد.. إنما ليس غداً.. فسنذهب إلى شارلوت تاون لنشتري لك بعض الملابس ولغرفة نومك بعض الأثاث. أيعجبك هذا؟»

- ثياب جينز كالتي يرتديها روبي وبيت؟

- أجل.. أعتقد هذا.

نظر إلى ساري الواقفة بهدوء قرب الباب، وإحدى يديها تستند إلى الإطار.

قال بصدق واضح:

- شكراً لك ساري.. الشكر مني ومن ابنتي.. الحمد لله لأنها كانت هنا في الأسبوع الماضي ولم تكن معي. كان الأمر صعب الوقع عليّ.

- أحقاً؟

- حقاً.. سأخبرك بكل شيء في ما بعد.

تخبرني عن ماذا؟ عن كارولين؟

ردت: «سأعود إلى العمل بعد الغد. ولكنني سآتي إلى هنا متى استطعت وذلك حتى تستعيد لي آن كامل عافيتها».

تأملت عيناه وجهها:

- أنت مختلفة كل الاختلاف عن كارولين.. أو على الأقل هذا ما أرجوه.. أحياناً أكاد لا أعرف ماذا أصدق.

لأول مرة ذلك المساء، ظهرت ساري الحقيقية.. فقالت بحدة وهي ترفع ذقنها بتحد:

- أنا فعلاً مختلفة.

- أتمنى على الله أن تكوني.

كان في العينين الرماديتين شيء من الاضطراب فلامست كمه بسرعة:

ما الأمر؟

ـ لا نستطيع التحدث الآن.. مرة أخرى.. سأتصل بك. هل لديك كل شيء ڤيكي.. افتحي لنا الباب ساري..

اضطرت للمرور أمامه فلامس قميصها معطفه. فتحت الباب فقفزت ڤيكي ونزلت الدرجات ولكن مارتن توقف قليلاً.. ولكنه ما لبث أن تابع سيره.

عادت ساري إلى المطبخ بعدما اختفى صوت سيارته عن سمعها.. في الأمر خطب ما.. هذا ما هي متأكدة منه. لقد حدث شيء ما لمارتن في الأيام القليلة الماضية وتراهن أن لهذا الأمر علاقة بكارولين.. الجميلة الباردة.

فكرت وهي تضع آخر صحن شاي في الخزانة أنه مهما كان الذي حدث.. فكارولين لم تعد موجودة على المسرح.. أما هي! ساري آثرتون فما تزال موجودة.. ومارتن بحاجة إليها.. هذا ما هي مقتنعة به كل الاقتناع.. المسألة الآن أصبحت مسألة انتظار.. حتى يأتي إليها.

* * *

١٠ ـ بين عاصفتين

إنها كلمات شجاعة.. لا أكثر ولا أقل!

لكن مع مرور أيام شهر حزيران وحلول فصل الصيف أخيراً، كان على ساري التفكير مراراً إن كانت أساءت فهم الموقف كله. أتراه لم يعد بحاجة إليها؟ إذ أنه لم يحاول مكالمتها على حدة أو رؤيتها بمفردها حتى حين كانت تراه، وهذا أمر حتمي.. فجواده «سلطان» ما يزال في اسطبل جيرالد.. وكانت ڤيكي تلعب مع الولدين ومع سوزي في كل فرصة سانحة لها.. لكن كان هناك دائماً أشخاص حولهما وضجيج وضحك، وارتباك..

إنه لا يحتاج إليها.. ولا يحبها.. هذه هي الاستنتاجات الحتمية التي توصلت إليها.

هناك استنتاج آخر إضافي، كان ينبع من معرفتها بما فعلته به كارولين في الماضي، أخذ يزداد احتمالاً.. بأن مارتن لن يحب امرأة مرة أخرى، أو يتمكن من قول تلك الكلمة السحرية البسيطة لأحد: «أحبك»... لقد أحب كارولين ووثق بها فكان أن رمت كل شيء في وجهه.. ولأن ساري مخلوقة مستقيمة صارمة تواجه لأول مرة في حياتها موقفاً لا تستطيع تغييره، كانت تتعذب.. كانت قادرة على مواجهة مارتن ولكن ما فائدة هذا؟ فما دام لا يريد مكالمتها ولا التقرب منها فما فائدة محادثته؟ إن ذلك قد يسبب لها الألم فقط وستحرجه بدون شك.

لهذا بدأت تتجنبه ففي كل مناسبة كانت تعتقد أنه قادم، حاولت

www.liilty.com

النغيُب. . وساعدها في هذا طبيعة عملها. . فقد عادت إلى الدوام.

كان قد مر عشرة أيام على عودته عندما سمعت ساري حديثاً بين مارتن وثيكي. كانت في مخزن الغلال ذات مساء تنظف مربط زهرة الصباح وحوافره حين سمعت باب المخزن ينفتح وصوت مارتن وثيكي:

ـ هل أستطيع إعطاءه الجزرة دادي؟

وجدت أن أمامها خيارين، إما إظهار نفسها والتحدث إليهما وإما البقاء حيث هي بعيدة عن الأنظار حتى يخرجا. . كان مربط «السلطان» منفصلاً عن مربط الزهرة بكومات من التبن غير مرتبة. .

قال صوت مارتن العميق:

ـ هاك. . لأرفعك.

ـ أنفه ناعم كالمخمل. . وأسنانه كبيرة.

ـ دلكي جبهته، فهو يحب التدليك.

ـ متى يصل مهري؟

ـ قال لي عمالنا إنهم سينهون بناء أول مربط غداً. . لذا يمكننا نجلب المهر بعد الغد.

أحست ساري بألم في ركبتها، فتحركت قليلاً ثم أبعدت رأسها لتتجنب ذنب الزهرة.

قالت ثيكي: «ستعلمني الركوب؟»

ـ بكل تأكيد.

ـ أنا سعيدة لأنني جئت إلى هنا! الحياة هنا مليئة بالفرح.

ـ وأنا سعيد بك هنا حبيبتي. . مع أنني أخشى أن تشتاقي إلى أمك.

لم يكن في صوت ثيكي مرارة وهي ترد:

ـ لم تكن في المنزل أبداً لذا لا أظنني أشتاق إليها على أي حال، إنها جميلة، رائحتها طيبة، ترتدي ثياباً جميلة. . لكنني لا أستطيع عناقها. . ليس كما أعانق ساري. . مثلاً.

ـ آه؟

ـ ساري فتاة لطيفة وأنت لطيف أبي.

رأت ساري ثيكي تضع ذراعيها حول عنق أبيها وتشد وجهها إلى وجهه:

ـ وأنا أحبك.

ـ وأنا أحبك أيضاً. . ثيكي.

غارت ساري في التبن تسند وجهها إلى جلد الزهرة المصقول الدافئ. . وللحظة مرعبة، أحست بالغيرة من ثيكي التي تنعم بحب مارتن ولكن أتغار من ابنته؟ . . أحست بالغثيان من ردة فعلها هذه فأغمضت عينيها. .

سمعت ثيكي تقول: «كنزتك بنعومة أنف سلطان. . فلنذهب إلى المنزل لنرى ساري».

تردد لحظات كانت معبرة كثيراً بالنسبة لها: «حسناً».

ثم ما لبثت أن سمعت وقع الأقدام تبتعد.

التقطت سرج الزهرة ولجامها ووضعته على ظهر الفرس ثم ربطت الحزام فأخذت الزهرة اللجام برشاقة بين أسنانها، وأمسكت ساري باللجام في يدها واعتلت صهوة الجواد وانطلقت إلى أحضان الطبيعة حيث يمكنها السير في الممر المؤدي إلى الشاطىء، فهي بحاجة لأن تكون قرب البحر. . وهذا كل ما تعرفه.

لم يكن وقتاً مناسباً لامتطاء الخيل فالغروب على وشك الحلول، والسماء محمّلة بغيوم كثيفة، والغيوم المحاطة بالوهج البرتقالي تتمزق بفعل ريح قوية. . نعم ستكون هي والزهرة في أمان داخل الغابة ولكن الأغصان تمايلت بصوت يشبه الموج. . ثمة عاصفة قادمة ولكنه طقس مناسب لمزاجها، فقد كرهت نفسها بسبب تلك الغيرة وكرهت نفسها لنفورها من ثيكي ولو للحظة قصيرة. . فلم تحظَ تلك الفتاة الصغيرة بطعم الحب الحقيقي. . فكيف تحسدها على حب أبيها؟

أجفلت الفرس عند انكسار غصن يابس عن شجرة، فوجهت ساري

انتباهها إلى اقتياد الفرس. . ثم أصابت قطرة ماء وجهها. . فقطبت لأنها لا تريد أن تعود هاربة، ليس قبل أن تهدىء ارتباكها الداخلي بالعدو كالمجنونة على طول الشاطىء الرملي. حينما برزت الفرس من بين الأشجار إلى الحقل الذي ينحدر نزولاً إلى الشاطىء، تلاعبت قوة العاصفة بشعر عنق الفرس وذنبها. . واخترقت كنزة ساري الرقيقة.

حتى مياه الخليج المحمية كانت تتفجر على الصخور في زبد أبيض رمادي مختلط. . ومر طير نورس أسود الجناحين فوقها.

سحبت ساري نفساً عميقاً من هواء البحر الرطب المالح. . لكن المد كان منخفضاً فامتداد الرمال واسع وكبير. . مالت إلى الأمام فوق قربوص سرجها، وربتت عنق الزهرة وصاحت:

ـ هيا بنا؟

وكأنما أحست الفرس بشيء من تهور ساري، فانطلقت تعدو بأقصى ما تستطيع. . راحت كثبان الرمال تمرّ بهما بسرعة ثم ارتمت الأمواج على الشاطىء تهمس وتزبد وهي تتراجع. . انحنت ساري إلى عنق الفرس بأكبر قدر ممكن تصغي إلى وقع حوافرها، وصفير الريح يطن في أذنيها. . أما نظرها فكان يقع على العشب المائي الأخضر وعلى الرمال الصفراء الشاحبة ومياه الخليج الرمادية. . ريح. . ماء. . رمال. . ولا شيء آخر في العالم.

وصلت إلى القناة التي تفصل الشاطىء عن الجزيرة. . وبدل أن تفكر في العاصفة والظلام أبطأت ساري سير الزهرة حتى أصبح خبباً وحثتها إلى الأمام. . وتطاير رذاذ الماء حول قوائمها، وخاضت الفرس في التيار الدوّام حتى وصل الماء إلى بطنها. ثم بدأت تتسلق المنحدر نحو الرمل الجاف، وأخذت تركض على شاطىء الجزيرة.

مرتا بالصخور الرملية الوحيدة ثم بأشجار الصنوبر. . ولم تتوقفا حتى وصلنا إلى نهاية الجزيرة.

ترجلت ساري عن ظهر الفرس تمسك اللجام بيدها، ووقفت مسمّرة

ترهبها روعة المنظر أمامها. . كانت أمواج المحيط ضخمة بضخامة لا مثيل لها، ترتفع في الهواء قبل أن تتحطم على الرمال في تهالك مجنون. صمّ الصوت الآذان، وأصبحت قوة المحيط مرعبة. . مع ذلك، هناك شيء بداني في جبروت الطبيعة بحيث لم تستطع ساري أمامه أن تتحرك، بدأت حركة الغيوم في الأفق وهدير الأمواج الذي لا يتوقف يفعلان بها فعل التنويم المغناطيسي. ولم تكن تدري كم مر من وقت عليها وهي هكذا. . ولكنها عادت بالتدريج إلى وعيها لأن البرد اخترق ثيابها.

هزت نفسها وقالت بصوت مرتفع:

ـ زهرة. . نحن مجنونتان. . من الأفضل أن نعود. . الظلام يشتد وأنا أكاد أتجمد برداً!

امتطت فرسها التي انطلقت جرياً فوق الرمال. . وبمقدار ما شعرت بالحاجة للنزول إلى الشاطىء بمقدار ما شعرت الآن بالحاجة إلى دفء المطبخ. . لا شك أنها جنت لأنها تجرأت على القيام بهكذا نزهة في ليلة كهذه. . ولا شك أن جيرالد ولي آن يفتقدانها.

كانت تضغط عن غير وعي جنبي الزهرة بكعبي حذائها وساقيها فكان أن استجابت الفرس بخبب سريع، وبدا لساري أن زمناً طويلاً قد مرّ قبل أن تصل إلى نهاية الجزيرة حيث القناة قاتمة وعميقة ومتسعة اتساعاً لم يكن قبل قليل.

راحت ساري تنظر إلى القناة وهي توبّخ نفسها على غبائها المتهور. . عرفت أن المد ارتفع. . ولكن لماذا تأخرت حتى هذا الوقت في مراقبة الأمواج؟

لم يكن لديها خيار سوى محاولة عبور القناة. . فالبديل الوحيد الآخر هو قضاء الليل على الجزيرة. . وارتجفت. . مرة أخرى أدارت الزهرة في دائرة أخرى قبل أن تتوجها رأساً إلى القناة. . ثم، في توقيت خاطىء، ضربتها الكارثة.

بعد برهة، استطاعت ساري أن تعرف ماذا حدث بالضبط: كان هناك

جذع شجرة يابسة نقلته العاصفة من الحقل وتدحرج رأساً نحو الفرس. . بدا للفرس شكل أسود رهيب وكأن له حياة خاصة به. . في تلك اللحظات، كل ما وعته هو تراجع الزهرة.

فجأة، انزلق اللجام من يدي ساري وفقدت توازنها فوقعت. . اصطدم جسمها بالرمال بشدة كادت تزهق معه روحها. . وسمعت صهيل الزهرة المذعور لدى تعثر حوافرها بجذع الشجرة، ثم اتجهت الفرس إلى البحر وفتحات أنفها تنفخ وعيناها تتسعان بجنون.

شدت ساري نفسها لتقف. . ووقفت مترنحة:

ـ زهرة. . عودي إلى هنا!

لكن الفرس كانت أبعد ما يكون بكثير عن الوعي، فسرعان ما وصلت إلى الجانب الآخر وركضت عبر الشاطىء، حتى أصبحت طيفاً يبتلعه الظلام. .

بدأت تفكر أن الزهرة ستتبع غريزتها وتتجه إلى المنزل، إلى المخزن المألوف والاسطبل. . ثم سيعرف جيرالد أن أخته قد أوقعت نفسها بمأزق آخر وسيأتي للتفتيش عنها. . أم لعله سيرسل مارتن؟ آه! لماذا هي بهذه الحماقة؟

كانت ترتجف من البرد والصدمة فثيابها مبللة. . وحذاؤها غارق بالماء. . اتجهت إلى قمة الصخرة الرملية الحمراء البارزة في الرمل فوق حافة الماء. . فهي ستؤمن لها على الأقل ملاذاً متواضعاً من الريح والمطر. . دست نفسها تحت حافة الصخرة وضمت ركبتيها في جهد لا جدوى منه لتدفىء نفسها.

لم يكن ما يحيط بها يدعو للراحة. . فقد كانت الصخرة تفوح برائحة نتنة. . كل ثيابها مبللة. . والظلام يحمل أصواتاً غريبة لصرير وتكسر لا بد أنها صادرة عن الشجيرات الصنوبرية القريبة. . ترى أيصل جيرالد إليها قريباً فهو يعرف أنها تميل إلى العدو على صهوة فرسها على الشاطىء. . لذا سيكون هذا المكان أول مكان يبحث فيه عنها. . ولكنها تألمت لأنها

ستسبب للجميع القلق، والقلق آخر ما تحتاج إليه لي آن. . كان المطر يزيدها بللاً، والريح تخترق إلى عظامها فعادت تتقوقع في مخبئها.

بدا لها أن دهراً مر. . لكن الحقيقة أنه لم يمضي وقت حتى رأت على الشاطىء البعيد، نور مصباح يدوي يمر فوق الرمال. . فوقفت ناسية وجود الحافة فخدشت خدها الذي تألم بحدة حتى اندفعت الدموع من عينيها ولكنها أبعدتها وصاحت بملء رئتيها:

ـ أنا هنا. . على الجزيرة!

لكن الريح شتتت الكلمات من فمها، وعرفت أن لا جدوى من الصراخ مرة أخرى وأن عليها أن تصبح حين يقترب المنقذ أكثر. . راحت تراقبه يتقدم ببطء. لا بد أنه رأى الزهرة فأدرك أنها مبللة بأكثر من ماء المطر. . وللسبب عينه، وخوفاً من أن يكون فارس الزهرة قد غرق، كان يبحث الشاطىء كله.

أخيراً اقترب فعرفت هوية المنقذ. . فخلف دائرة النور لاح لها طيف جواد أسود كبير. . إنه سلطان. . وراكبه إذن هو مارتن.

وضعت يديها حول فمها تملأ رئتيها بالهواء ثم صرخت باسمه في الظلام. . لا شك أنه سمع، لأن شعاع المصباح اليدوي اتجه نحوها.

هرع الجواد وفارسه على الشاطىء وركضت هي إلى حافة القناة، ثم وقع ضوء المصباح عليها فأعماها.

صاحت: «القناة عميقة جداً!»

رد صائحاً: سأحاول.

كان سلطان أرفع قامة بشبرين من الزهرة وأقوى بنية بكثير. . مع ذلك فقد تبلل مارتن حتى ركبتيه، ولم تعتقد ساري أنها رأت قط منظراً أجمل من الفحل الأسود وهو يتخذ موقع قدم فوق الرمال إذ لم تعد وحيدة. . مال مارتن إلى الأمام وصوته حاد من فرط الغضب.

ـ هل أنت بخير؟ أيمكنك اعتلاء صهوة الجواد؟ من الأفضل أن نعبر حالاً فالمد ينصاعد بسرعة.

رمت نفسها بجهد يفوق تحمّل البشر خلفه، ثم أغلقت عينيها بطريقة جبانة ومارتن يحث السلطان على العبور مجدداً.. ثم أحست بالمياه الباردة تصل إلى ركبتيها.. وسرعان ما عاد السلطان إلى الشاطىء الرئيسي.

كانت رحلة العودة كابوساً.. فساقي بنطلون الفروسية المبتل التصق بساقيها، وتابع المطر انهماره واشتد الظلام.. وكان مارتن قد أطفأ المصباح وراح يعتمد على عيني السلطان لتقودهما في الغابة، سرعان ما أدركت أنهما يتجهان إلى منزل مارتن لا إلى منزل أخيها.. ولا شك أنها أصدرت احتجاجاً إذ صاح:

- منزلي أقرب.. وأنت مبتلة حتى العظم.

لمّا توقفا خارج الأسطبل الحجري الجديد.. ترجل مارتن عن صهوة جواده وكادت ساري تقع لو لم يسارع إلى إمساكها.. أنزلها بغير احترام إلى الأرض وقال بحدة:

- ابقي هنا.. يجب أن أضع سلطان في الداخل.

ولم يكن لديها نية في التحرك.. فجلست القرفصاء لتريح رأسها بين ركبتيها.. ولم تعد تعي شيئاً حتى عاد وأدخلها إلى المنزل. قال مارتن:

- سأتصل بجيرالد لأبلغه أنك سالمة.

رفعت وجهاً ملهوفاً أبيض اللون: والزهرة؟

- وصلت إلى الاسطبل وأنا على وشك الخروج للتفتيش عنك، ولكنها لم تصب بأذى ولا أظن أن الفضل عائد إليك بهذا!

وخرج من الغرفة أما هي فلازمتها ذكرى وجهه المتجهم المشدود الشفتين.

عندما عاد وجدها محتبية على كرسي. قال لها باختصار: «جيرالد مسرور لأنك سالمة».

- وهذا ما لا يمكن قوله عنك.

- هذا لأنني غاضب غضباً شديداً منك..

أرشدها إلى الحمام لتأخذ حماماً ساخناً وأدار الماء بقوة وأخرج مناشف من الخزانة ثم قال بخشونة:

- سأكون في الخارج إذا احتجت شيئاً.

وأقفل الباب وراءه.. وعدلت ساري حرارة الماء ثم وقفت تحتها.

لم تستمتع قطُ بدوش كهذا.. فقد اخترقت الحرارة جسدها فأرخت عضلاتها وهدأت أعصابها المتوترة.. نظفت نفسها بالصابون وغسلت شعرها بالشامبو ثم خرجت إلى البساط، فارتدت روباً للحمام وخرجت تنادي:

- مارتن؟

ولكنها قبل أن تنادي ثانية رأته واقفاً على بُعد قدمين منها يخرج قميصاً من درج خزانته.. كان قد خلع ثيابه المبتلة وارتدى ثياباً أخرى.

التفت إليها يسأل: «ماذا حدث لوجهك؟»

لامست خدها بخفة:

- لقد خدشته بالصخرة على الجزيرة.

- أيتها الحمقاء المجنونة.. كدت تغرقين ألا تدركين هذا؟

لم تعد تلك المخلوقة الخائفة المرتجفة التي كانت منذ عشرين دقيقة. ردت ببرود: «أنت تبالغ بردة فعلك».

- تباً! أتعرفين بما شعرت حين رأيت الزهرة عائدة بدونك وسط العاصفة؟

برقت العينان الخضراوان في وجهه:

- لا فكرة لي أبداً عما تشعر به بشأن أي شيء مارتن ريفز!

رمقها بنظرة حادة، وقال بصوت هادىء خطير:

- حسن جداً، أنت على وشك أن تعرفي.. لماذا فعلت هذا على أي حال؟ لتخيفينا؟

- لا بالتأكيد!

- لماذا إذن؟

رغم دوران عقلها في حلقة مفرغة من الصور: الأوز البري الطائر في أول يوم رأته فيه، والتوتر في جسده حين واجه كارولين، والنظرة في عينيه حين رأى ڤيكي للمرة الأولى بعد أربع سنوات.. لا جدوى من محاولة خداعه.. وستكون صادقة كعهدها معه.

قالت بهدوء:

ـ كنت في الاسطبل عندما كنت أنت وڤيكي فيه.. وسمعتك تقول لها إنك تحبها.

لان وجهه وسألها:

ـ ولماذا هربت؟

حدقت إلى صدره:

ـ لم أعتقد أنني سأسمع هذا منك.. ظننت أن كارولين دمرت قدرتك على الحب.. لكن حين سمعتك تقولها لڤيكي، انزعجت، هذا كل شيء.

حدق ملياً في وجهها: «انظري إليّ».

رفعت عينيها الخضراوين المضطربتين إليه، وقلبها يتخلى عن خفقانه لحظة:

ـ ظننت أنا أيضاً أنها دمرتني فعلاً.. وخفت الاقتراب من أحد.. لكن هذا غير صحيح الآن.. وأنت السبب الأساسي ساري.. أنت وڤيكي.

أحست بجفاف حلقها: «أنا؟»

ـ أجل.. ألم تفهمي سبب غضبي الشديد منك الليلة؟ الأمر بسيط جداً.. حينما رأيت زهرة الصباح وظننت أن مكروهاً أصابك، كدت أجن.. أوه.. ساري، عرفت منذ أيام بل منذ أسابيع كم تعنين لي.. لكن كان هناك دائماً ما يمنعني.. ما يجعلني خائفاً من قول الكلمة لك.. لكنني لم أعد خائفاً.. أحبك، ساري، أحبك.

زال الضحك من صوته، وأصبح أجش فجأة:

ـ أوه.. ساري، لن أكتفي منك يوماً! أحبك كثيراً.

الآن أصبحت حرة لتقول ما تشاء.

ـ وأنا أحبك مارتن.

استند إلى مرفقه:

ـ سبق أن قلت لي هذا.. ولكنني لم أكن مستعداً لتقبلها يومذاك.. لقد احتجت إلى هذه الأيام القليلة مع كارولين، ففي السنوات الماضية الأربع كنت في معضلة لم أستطع حلها. لقد خدعتني وسرقت ابنتي مني.. كنت يوماً بعد يوم أتأكد من شكي.. ولكنني لم أستطع أن أصدق أنها قد تكون بهذه القسوة.

ـ لست مضطراً للتطرق إلى هذا إن كنت لا تريد مارتن. لا بأس..

نظر إليها:

ـ لا.. دعيني أتحدث لمرة واحدة، ولتنسَ بعد ذلك الأمر كله.. عندما ذهبنا إلى هناك فوجدناها بانتظارنا، حصلت على الدليل الذي أريده.. أوه لقد بذلت ما في وسعها لتتهرب من الاتهام، واستخدمت كل خدعة مسموحة وممنوعة لكنها سرعان ما اكتشفت أن أفعالها كلها لن تؤثر فيّ.. فلم أعد الرجل نفسه الذي عرفتني منذ ست سنوات.. فبدأت تساوم.. تعطيني حق الحضانة مقابل كمية محددة من المال، لا يهم كم لكنه مبلغ كبير على أي حال.

همست مصدومة:

ـ أتعني أنها باعت ڤيكي لك؟

ـ هذا ما حصل.. يجب ألا تعرف ڤيكي هذا أبداً.. لكن هذا سبب اضطراري للبقاء مدة أطول.. فلم أرغب بكل تأكيد أن يكون هناك أية هفوة قانونية.

ابتسمت ابتسامة حزينة: «لن أخبرك بما ظننتك تفعله هناك!؟»

ابتسم لها بدوره:

ـ لا مجال أبداً.. حين أتذكر أنهم ما حدث.. فرغم كل إنجازاتي

العلمية، كنت غير مجرب أبداً ولم أكن قد أحببت من قبل لذا أغدقت عليها كل مشاعر ابن السابعة والعشرين ورسمت لها صورة مثالية لم تكن حقيقية قطّ.. ثم حين تحطمت الصورة لم أستطع مواجهة الحقيقة.. وآمنت أن جميع النساء على شاكلتها حتى التقيتك.

ضحك: «واقتحمت حياتي!».

ـ هذا ما حصل.. أليس كذلك؟

ـ كنت مختلفة ساري.. صادقة ومستقيمة، تشاركين في الحياة ولست هامشية كما كنت أنا منذ زمن طويل.. أنت تهتمين بالناس، وأنت جميلة بعينيك الخضراوين الواسعتين وشعرك الأصهب الذي ينسجم مع طباعك.

ـ هذا غير صحيح!

ـ سيكون أمامنا وقت طويل لنتجادل على هذا. ستتزوجينني أليس كذلك ساري؟

ـ كنت أتساءل متى ستطلب مني هذا الطلب.

وابتسمت له بحنان:

ـ أجل.. سأتزوجك.. مارتن.. أجل.. وأجل!

ـ أنا لا أستحقك ساري.

ـ لا تقل هذا..

ـ الليلة عندما ظننت أنني فقدتك عرفت مدى حماقتي لأنني لم أحدثك بهذا قبل الآن، لكن صدمة وجود كارولين حية وإدراكي لحقيقتها جعلاني مصعوقاً.. لذا احتجت بعض الوقت لأفكر، لأفهم أن صورتك حقيقة واقعية وجميلة.. ثمّ هناك العلاقة الجديدة مع ابنتي.

ـ ولهذا كنت منزعجة اليوم.. لقد تمكنت أن تقول لها إنك تحبها، لكنك لم تتمكن من قول هذا لي.. فأحسست بالغيرة منها.

ـ لا داعي لتغاري ساري.. فأنا أحبك وأثق بك.. أنت الحقيقة بالنسبة لي.

ترقرقت دموع السعادة من عينيها:

ـ كما أنت لي.

ـ أخيراً أستطيع أن أقول إن الماضي مضى وانتهى.

كانت ابتسامتها مشرقة وكلماتها صادقة.

ـ والمستقبل لنا.

ـ والحاضر لنا كذلك.. يجب أن أعيدك إلى منزل أخيك.. ولكن لن يطول الوقت حتى تصبحين سيدة منزلي إلى الأبد.. إلى الأبد.

* * *

www.rewity.com